

امبراطوریتِ رابع

رابع... وطلّئ الاستعمار لفرنسى

• الأرض البكر - ثلاث قوى - لجنة إفريقيا
الفرنسية - بعثة بول كرامبل - موقف السنوسى »

شهد العالم فى الفترة الواقعة بين أعوام ١٨٧٠ ، ١٩١٤ مرحلة تاريخية هامة نمت فيها الاحتكارات الرأسمالية نموا عالميا فى كل من فرنسا وانجلترا والمانيا نتيجة لنمو الصناعة وتقدمها فى تلك البلاد مع تركيز الأموال وأعمال البنوك فى أيدي عدد من المؤسسات الضخمة . وصاحب هذا النمو نشأة الاستعمار والنسابق الجنوبي إلى تقسيم العالم بين هذه الدول إلى مناطق نفوذ واسعة يمكن فيها تصريف منتجات الصناعة الأوروبية والحصول منها على المواد الخام والأيدي العاملة بأسعار زهيدة تزيد من أرباح الأموال المستغلة فى هذه المستعمرات .

وكانت إفريقيا فى ذلك الوقت بما يحوطها من غموض هى الأرض البكر التى يتطلع إليها الممولون فى كافة دول أوروبا، والمجال الطبيعى لتوسع الرأسمال الأوروبى فى بحثه عن أسواق جديدة وكانت فرنسا من أنشط الدول فى ارتياد مناطق تلك القارة وضم

أجزاء منها إلى امبراطوريتها حتى لم تكد أواخر القرن التاسع عشر تقبل حتى كانت هذه الامبراطورية تضم الجزائر ، ومدغشقر وداهومي ، وتومبكتو ، والسنغال وغرب أفريقيا حتى فاشودة ومنابع النيل وحتى كان تعداد سكانها يبلغ حوالى الخمسين مليوناً (١)

وكانت طريقة فرنسا فى احتلال تلك الأجزاء المختلفة من امبراطوريتها هى إرسال البعثات العلمية والتجارية التى تغزو البلاد تحت ستار التجارة والعلم وتعمل فى الوقت نفسه على عقد معاهدات واتفاقيات مع ملوكها ورؤسائها يخضعون بمقتضاها لنفوذ فرنسا وحمايتها . ولكن الطريق مع ذلك لم يكن سهلاً دائماً أمام تلك البعثات فقد التقى بعضها فى أغلب المناطق بوطنيين أشداء وبملوك وسلاطين تصدوا لمقاومتها وردوها عن أبواب بلادهم فى سلسلة طويلة من المعارك الدامية (٢) .

ولقد كانت السودان الوسطى من أعصى تلك المناطق على الاستعمار الفرنسى . . فقد كان للسنوسى نفوذ واسع بتلك الأصقاع ، وكان راجح قد بدأ يكون امبراطوريته الواسعة ويجمع

(١) كتاب « نشأة الاستعمار الفرنسى » تأليف سيريل كلايدون (طبعة لورنس وويشارت) ص ٤٠ .

(٢) راجع الفصل الأخير فى هذا الكتاب عن « الاستعمار الفرنسى فى شمال وغرب أفريقيا » .

حول رايته القبائل المتناثرة حول بحيرة تشاد وشواطئ نهر
شارى ، كما كان هناك الباجورميون وهم أفراد قبيلة واسعة النفوذ
تقطن شرقى نهر شارى وتبسط سلطانها عليه . وبذا كان على
البعثات الفرنسية الغازية أن تصطدم بكل تلك القوى وأن تحارب
كل واحدة منها بالأسلوب الذى يضمن لها فى النهاية تحقيق
أهدافها الاستعمارية .

ولقد استطاعت فرنسا أن تستميل السنوسى إلى صفها دون
قتال . . وأن تعقد معاهدة مع السلطان عبد الرحمن جوارنج
سلطان الباجورمين الذى كان يخاف على نفسه من قوة راج
النامية فكان طبيعيا أن يرحب بتلك المعاهدة التى تضمن له حماية
فرنسا ضد ذلك العدو الناشئ . وبذلك استطاعت فرنسا تدريجيا
أن تتخلص من قوتين سياسيتين فلم يبق أمامها من ند عنيد سوى
راج الذى أبى أن يفرط فى البلاد التى اتخذها وطنا ثانيا بعد أن
غادر وطنه الأول ، وأن يتركها لتسقط فريسة فى أيدي المستعمرين
الطغاة الذين كان يعرف عنهم وعن أساليبهم أكثر مما يعرف
السنوسى أو السلطان جوارنج . .

وقف راج إذن وحده ضده الاستعمار الفرنسى ، وبالرغم
من الخيانات التى كانت تعيش حوله وتحيط به ، والممثلة فى تحالف
السنوسى والباجورميون مع فرنسا ، فقد استطاع أن يصمد

في كفاحه وقتاً طويلاً ، وأن يكبد الفرنسيين من الخسائر
في القوات والأرواح ما لجأهم في النهاية إلى السعي لدى الزبير
في القاهرة كي يتوسط لهم عند قائده القديم راجح بقصد إيقاف
تلك الحرب كما قدمنا .

والآن فلنبدأ القصة من أولها . .

في حوالى نهاية عام ١٨٨٩ اجتمع في باريس عدد من
الأشخاص يمثلون رجال الصناعة والمال في فرنسا ، وذلك لتكوين
شركة تتولى تمويل عمليات الغزو والاستكشاف في مناطق أفريقيا
الوسطى عرفت بعد ذلك باسم « لجنة أفريقيا الفرنسية » وجاء في
برنامجها ما يأتى :

« نحن الآن في اجتماع فريد في التاريخ إلا وهو تقسمه قارة
لا يعرفها إلا عدد بسيط من دول أوروبا المتمدنية .

ولفرنسا في هذه التقسمة الجزء الأكبر والنصيب الأول
لتنازلها وموافقتها لباقي الدول على التمتع بحقوقها في أفريقيا
الشرقية والمجهدات التي بذلتها لتنمية ممتلكاتها في الجزائر وتونس
والسنغال والكونغو . ولقد جاء في الإتفاق المبرم بين فرنسا
وانجلترا حقناً في ربط مستعمراتنا في السنغال والجزائر عبر
الصحراء ، كما يعطينا نفس الإتفاق الحق في شمال بحيرة تشاد التي

نزمع الوصول اليها من الكونغو عن طريق باجورى . ويجب على نفوذنا أن ينتشر أولا في هذا البلد الأخير وأن نعمل على ربط الكونغو الفرنسى والسنغال والجزائر وتونس حول السودان .

ويجب علينا لتحقيق هذه الأهداف هو القيام بعمل إيجابى مباشر لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ أن نأخذ على عاتقنا مهمة تمويل حملة نرى أن تسند قيادتها إلى پول كرامبل بقصد استكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد وتكون من مهمتها عقد المعاهدات مع رؤساء تلك البلاد ثم العودة عن طريق الشمال إن أمكن ذلك . على أن تكون هذه الحملة مقدمة لحملات أخرى نقوم بتمويلها وبذلك يمكننا خدمة النفوذ الفرنسى درن أن نكبد الحكومة أية مصاريف أو نعرضها لتحمل أية مسؤولية . ونحن نعتبر مثل هذه الحملات ضرورية في وقتنا الحاضر إذ أن للمحتل الأول الحق في السيطرة على أفريقيا الوسطى . ومن ثم نستطيع تنمية تجارتنا في هذه المناطق بعد أن تقع تحت النفوذ الفرنسى كما هو متبع الآن في البلاد الواقعة في نيجيريا .

لذلك كله قررنا تأليف شركة تحمل اسم لجنة أفريقيا الفرنسية يكون هدفها انتشار النفوذ الفرنسى والتجارة بكافة الوسائل في أفريقيا الغربية والوسطى والشمالية . وقصد هذه الشركة تنفيذ

فكرة وطنية حرة لادخل لها بالأحزاب السياسية وخارجة عن نطاق الأعمال الحكومية»^(١).

هذه هي الأهداف التي تضمنها برنامج لجنة أفريقيا الفرنسية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الإستعمار الفرنسي والتي دفعت بيول كرامبل إلى تلك المناطق كطليعة لعدد كبير من البعثات الفرنسية التي قدر لها أن تأتي من بعده .

ولقد ولد بيول كرامبل هذا بنانسي بفرنسا عام ١٨٦٤^(٢) ثم أرسلته وزارة المعارف الفرنسية في بعثة إلى أفريقيا الوسطى . وفي عامي ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ عاد بمفرده إلى تلك البلاد فاستكشف شمال الكونغو الفرنسي وحدد أراضي المستعمرات الفرنسية في جنوب الكمرون الألماني كما استكشف منابع نهر الاقندو الكبير وجزءاً من مجراه غير أنه لم يلبث أن أصيب بالحمى فقفّل راجعاً إلى فرنسا . وفي ١٨٩٠ وكان قد شفى تماماً واستعاد قوته رشحته رحلاته السابقة إلى أفريقيا ومعرفته النامة بتلك البلاد لأن يكون على رأس البعثة الأولى التي قررت لجنة أفريقيا الفرنسية إيفادها

(١) كتاب « غزو بحيرة تشاد عام ١٨٩١ وحلفاؤنا الأفريقيون ١٨٩٤ » تأليف بيول كرامبل ص ٢٥٩ إلى ص ٢٦٣ .

(٢) دائرة المعارف الفرنسية لقاموس لاروس الجديد العالمي المصور ص ١٦٠ المجلد رقم ٤٣ .

« لاستكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد وللقيام
بعقد معاهدات مع رؤساء تلك البلاد ثم العودة عن طريق الشمال
ان أمكن ذلك ، طبقاً لما جاء في نص برنامج تلك اللجنة كما قدمناه .
ولكن كرامبل لم يقدر له أبداً العودة عن طريق الشمال
أو عن أى طريق آخر فقد التقي به راجح في جوار بلدة « الكوتى » ...

• • •

وصل كرامبل إلى الكونغو الفرنسى ، ومن ثم استطاع
بسهولة مبتدئاً من مدينة « بنجوى » ، على نهر الا وبنجى أن يجتاز
بجملته منابع نهر شارى . فلما بدأ بعد ذلك يخترق تلك المناطق
متجهاً شمالاً نحو ضفاف بحيرة تشاد بدأت أرصاد راجح وعيونه
تنبه لهذا الوافد الغريب .

وكان راجح في ذلك الوقت ، وكما قدمنا ، تربطه بالسنوسى
روابط التحالف والمصاهرة وكانت المناطق الواقعة جنوب ودّاي
والى الغرب من مقاطعة دارفور تدخل فى نطاق سلطانه الحربى
وإن كانت تخضع دينياً لزعامه السنوسى ومذهبه . وكانت حمايتها
وحكمها موكولين إلى راجح فما كاد يعلم بتقدم كرامبل وقواته
فى تلك الأنحاء حتى نشط إلى مطاردته إلى أن التقي به بالقرب
من بلدة « الكوتى » .

كانت قوات كرامبل تتألف غالبيتها من حوالى الستمائة رجل

من السنغاليين المسلحين بنحو ثلاثمائة بندقية في حالة جيدة موديل عام ١٨٤٢^(١) ومن بعض الحمالين والأتباع ممن انضموا إليه خلال رحلته من الكونغو إلى تلك المنطقة ، التي لم تشهد من قبل مثل ذلك العدد من الأجانب الذين كان يبدو تسليحهم على قدر كبير من النمام .

التقى راجح اذن بهذه القوات ، وبالرغم من أن أحدا من المؤرخين لم يذكر بعد ذلك شيئا عن نشوب معركة بينه وبينها إلا أنه من الثابت أن راجحاً قد استقبل هذه القوات بوصفها قوات غازية معادية . أما كيف قتل كرامبل وأباد حملته نهائيا واستولى على عدته من البنادق والسلاح فقد بقي حتى اليوم لغزا لا يلم بتفاصيله أحد .

فدائرة المعارف الفرنسية تقول إن كرامبل ، قد وقع في فخ نصبه له السنوسى زعيم المسلمين وذلك في بلدة «الكوتى» بعد موافقة راجح ،^(٢) بينما يذكر اميل جنتيل في كتابه «سقوط امبراطورية راجح» ، إن كرامبل قد لقي حتفه «بناء على تحريض من راجح أو أوامر من السنوسى نفسه ثم سلمت أسلحته بعد ذلك إلى راجح

(١) كتاب «سقوط امبراطورية راجح» لمؤلفه اميل جنتيل ص ٢٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الفرنسية لقاموس لاروس الجديد العالمى المصور ص ١٦٠

المجلد رقم ٤٣ الطبعة الجديدة .

وكانت تبلغ على وجه التقريب ثلاثمائة بندقية في حالة جيدة
موديل ١٨٤٢ ، . . .

ولقد حرص السنوسى بعد ذلك على التوصل من تهمة قتل
كرامبل أو الاشتراك فيها كما كان حريصاً على أن يثبت ذلك
للسلطات الفرنسية بإقامة علائق ودية معها بعد ذلك ^(١) ويبدو
أن تلك السلطات لم تكن على استعداد لأن تناصب السنوسى العداء
فى الوقت الذى كان عليها فيه أن تكتمل كل جهودها ضد راجح
الذى كان قد بدأ يوسع نفوذه ويوطد أقدامه فى تلك البقاع
كقوة حربية خطيرة لذا فقد آثرت التظاهر بتصديق براءة السنوسى
من دم كرامبل ملقية المسؤولية كاملة على عاتق راجح الذى اعتبر
بحق العدو الأول لخطط فرنسا فى تلك المنطقة البكر .

قتل كرامبل إذن ، وبمقتله تلقت مشروعات « لجنة أفريقيا
الفرنسية » الصدمة الأولى على يد راجح . ونحن وإن كنا لانستطيع
أن نزيد إلى تفاصيل ذلك الحادث شيئاً جديداً لقلة ما تركه
المؤرخون عنه إلا أننا لانستطيع مع ذلك أن نهمل بيان ذلك
الآثر الضخم الذى خلفه فى حياة راجح . فبالإضافة إلى أن مقتل
كرامبل هذا قد أتاح للأول الاستيلاء على أسلحته مما ساعده

(٣) كتاب « حياة السلطان راجح » مؤلفه جاستون دى جاريك طبعه
باريس ١٩٠٢ ص ٩٦ .

إلى حد كبير على تقوية جيشه وإقامة قواعد امبراطوريته فيما
بعد ، فانه قد حدد أيضاً مركزه نهائياً بالنسبة للغزو الفرنسي
أولاً ، وبالنسبة لما كان يربطه بالسنوسى من تحالف ثانياً . فقد
كان تنصل السنوسى من ذلك العمل الذى إن لم يكن قد شارك
فيه فهو على الأقل قد رحب به ، ثم انضمامه إلى الفرنسيين بعد
ذلك إيذاناً لا بانقسام عرى هذا التحالف فحسب وإنما بداية
لعداوة مستترة بين راجح والسنوسى بعد ذلك سوف نلمس آثارها
فيما جرى عقب مقتل كرامبل من وقائع وأحداث .

امبراطورية راج...

« راج يؤدب مملكة وداي - نحو الغرب -
نهر شاري - حصار مانهايا وهزيمة
الباجورمين - اكتساح برنو ومعركة كوكا -
« راج يحكم امبراطوريته - راج الزعيم القوي »

قلنا إن مقتل كرامبل كان حادثاً بعيد الأثر في سير الأحداث
بالنسبة لراج بعد ذلك فقد زوده بثلاثمائة بندقية لم يكن حصوله عليها
في ظروف كظروفه تلك شيئاً قليل الأهمية ، كما فتح أمامه آفاقاً
بعيدة وملاً نفسه بالثقة والعزم فبدأ ، بعد أن كانت كل معاركه من
قبل لا تعدو أن تكون غزوات متفرقة لا يربطها هدف واحد ،
يفكر في أن تأخذ حروبه شكلاً جديداً وانتصاراته هدفاً أوسع
وأعمق مما كانت عليه . .

بدأ راج لأول مرة يفكر في أن تكون له مملكة واسعة
يستقر في ربوعها ويتحكم في مصائرهما ويجمع حول رايته القوى
المناهضة للغزو الفرنسي الجديد الذي جاء كرامبل بطلائعه . وكان
طبيعياً أن يدرك راج بفطرته وخبرته التي اكتسبها من نشأته تحت
زعامة الزبير السياسية أنه ما لم يوحد تلك القبائل المتفرقة في حوض

نهر شارى وعلى ضفاف بحيرة نشاد والتي كان معظمها من القبائل
الوثنية فى أمة واحدة فلن يقبض لهذه المناطق أبدا الوقوف فى
وجه ذلك الغزو الفرنسى المنتظر ، وأن بقاءها على هذا النحو من
التفرق كفىل بأن يجعلها تتساقط الواحدة بعد الأخرى كأوراق
الخريف فى أيدي أصحاب الأموال الفرنسيين . .

ولكن كان على راج قبل أن يبدأ خطته البعيدة تلك أن يعلم
السنوسى حليفه السابق درسا لا ينسى جزاء انخيازه للفرنسيين عقب
مقتل كرامبل . ولما كان عسيرا على راج أن يهاجم السنوسى نفسه
فى واحة الكفرة فقد عول على الفاء درسه هذا على ملك ودّاي
الذى كان يدعى سلاّمات والذى كان مركزه فى الواقع بالنسبة
للسنوسى مركز التابع والخدام .

لذا فما كاد راج يتمون بالمؤن والذخيرة ويعيد تنظيم قواته
حتى اتجه شمالا لتأديب مملكة ودّاي التى يعرفها من قبل منذ أن خاض
على حدودها بعض الممارك تحت لواء الزبير كما سبق أن ذكرنا .
ولقد استطاع راج هذه المرة أن يوقع بعض الهزائم بقوات
ودّاي وهى وإن لم تكن هزائم حاسمة إلا أنها كانت كافية فعلا
لإشعار السنوسى بقوته وخطره وبأنه قد خسر بفقده حليفاً قويا
يستطيع لو أراد أن يقض مضجعه .

ولكن راجاً لم يكن يريد أن تضعي قواته التى يعدها لهدفه

الكبير الآخر في حرب طويلة مع ودّاي لن تنتهى مع ذلك إلى شىء واضح محدد فلم يلبث أن تعجل رفع حصاره عن تلك المناطق والاتجاه نحو الغرب حتى شواطئ نهر شارى .

ولقد لعب نهر شارى هذا دوراً كبيراً سواء في إقامة إمبراطورية راج أو في انهيارها في النهاية ، وذلك بتسهيله لنسلك القوات الفرنسية إلى مناطق السودان الوسطى . فقد استطاعت هذه القوات أن تنقل إلى صفحته عدداً من البواخر النهرية ساعدت في صورة واضحة على سرعة التنقل بتلك المناطق وعلى التهديد لنقل مؤوتتها وعتادها على نحو افادها أعظم الفائدة في المعارك التي خاضتها ضد راج .

ونهر شارى نهر كبير يقع في جوف أفريقيا الوسطى وينبع من المرتفات الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل والكونغو ثم يجرى ينطء في اتجاه الجنوب لمسافة قصيرة يغير بعدها اتجاهه إلى الشمال الغربى حول سهل كبير ليصب في النهاية في جنوب بحيرة تشاد بدلتا واسعة تعترضها الصخور ، وهو صالح للملاحة في أكثر أجزائه وإن اعترضت مجراه بين الحين والآخر عدة جزر وسدود من الرمال حيث تكثر التماسيح وفرسان النهر كثرة ملحوظة .

وكان يقطن شواطئ هذا النهر عندما بلغها راج عدد من قبائل الوثنيين مثل قبائل الملتوس Miltous والبواس Bouas

والساراس Saras والاليتونز Alitons والتوموكس Tomocks وهي قبائل تختلف في الجنس والعادات والتقاليد وإن اشتهرت جميعها في أنها تعيش على نحو من الهمجية والبدائية . فأفراد التوموكس مثلاً يخاف الجسم يقطنون أكواخاً تدل على البؤس وقد وصفها دائرة المعارف الفرنسية ^(١) بأنها أكواخ مغطاة بالحشائش والنبات الجاف يرى الإنسان بداخلها جراراً مدفونة في الأرض حتى نصفها الأعلى وقرعة كبيرة لحفظ الماء وأخرى للدقيق وسلال كثيرة وفراش يتكوّن من قطعتين من الخشب متوازيتين وقد ثبتت أطرافها على أربعة أوتاد ، أما الزراعة هناك فتأخرة جداً وتقع أعمال الحقول على عاتق النساء من أفراد القبيلة ، بعكس قبيلة الساراس التي كان سكانها يعتبرون من أجل سكان تلك المنطقة بالرغم من أنهم كانوا يخلعون أحد قواطع أسنانهم العليا ويساوون باقي الصف بالمبرد وكانوا يعنون بالزراعة إلى حد بعيد إلى جوار إجادتهم للقتال وحبهم للحرب والنزال . وكان لباس تلك القبائل غاية في البساطة يتكوّن من قطعة من جلد الماعز يشدونّها حول وسطهم لتستر أجسادهم من الخلف فقط وكان مستواهم العقلي والاجتماعي غاية في التدهور والبساطة .

ولم تقو هذه القبائل بطبيعة الحال على الصمود أمام قوات راج

(١) دائرة المعارف لقاموس لاروس الجديد العاشر المصور صفحة ١٠٦٨ المجلد

٤٢ الطبعة الجديدة .

فاستسلمت له بغير جهد كبير على شدة بأسهم وبراعتهم في القتال .
وكان طبيعياً أن ينشر راجح بينهم بعد ذلك الدين الإسلامى ويشيع
في ربوعهم نوعاً من العدل والأمان لم يحسوا به من قبل ، وينقلهم
بمجهود يعتبر من أروع ما شهدته تلك المناطق ، من حياتهم الفطرية
البائسة إلى حياة أكثر رقياً وحضارة مما أدهش حتى أعداءه من
المستكشفين الفرنسيين الذين زاروا تلك القبائل بعد ذلك .

ولقد أقام راجح ينظم شئون تلك القبائل على ضفاف نهر
شارى حتى عام ١٨٩٣ فلما اطمأن إلى شئون مملكته الناشئة هذه ،
ترك بعضاً من الحاميات في دتجباو ، ودكونو ، وغيرها من مدن
نهر شارى ثم تحرك نحو الشمال لاتمام هدفه الكبير حتى بلغ
حدود باجورى .

* * *

وباجورى هذه ولاية إسلامية تقع في وسط أفريقيا كان
يحكمها في ذلك الوقت سلطان يدعى عبدالرحمن جورانج . ولقد تمتعت
هذه الولاية باستقلالها التام حتى السنة التي بلغ راجح فيها حدودها
أى حتى عام ١٨٩٣ . ولم يكن احتلالها في ذلك الحين من بين أهداف
راجح وإن كان مع ذلك قد اضطر إلى الهجوم عليها بقصد أن يفتح
لنفسه طريقاً إلى ماوراء نهر شارى غرباً وهو الطريق الذى كانت
تتحكم فيه بلدة دمانافا ، الواقعة على حدود تلك الولاية .

وكانت بلدة مانهافا هذه تتمتع بموقف حصين يعصمها من الغزو فلما بلغها راجح أحكم حولها الحصار لمدة خمسة أشهر كاملة أذاق الباجوريين خلالها من أهوال القتال والحصار ما دفعهم في النهاية ، وقد يشسوا من تخلص مدينتهم ، إلى الهرب منها عبر النهر فدخلها راجح وضم من بقى فيها من الأهالى إلى أسره .

وبسقوط مانهافا فى يد راجح فتح أمامه الطريق إلى الغرب .. أما سلطان باجورى بعد ذلك فقد أدرك من فقده لذلك الموقع الحصين أن عدوا عنيدا قد بدأ يبرز نجمه على حدود ولايته وأن هذا العدو لن يدع للأمن سبيلا إليه ففضل فى عام ١٨٩٤ أى بعد شهور قلائل من سقوط مانهافا أن يستسلم للنفوذ الفرنسى الذى بسط حمايته على تلك الولاية بمقتضى الاتفاقية التى عقدت فى ذلك العام بين فرنسا والمانيا لتقسيم مناطق النفوذ فى افريقيا الوسطى والذى كانت فيه باجورى من نصيب الفرنسيين .

وفى عام ١٨٩٧ زار تلك الولاية الكولونيل أميل جنتيل مبعوث الحكومة الفرنسية حيث أحسن السلطان جورانج استقباله فى عاصمته « ماسينا » وعقد معه معاهدة صداقة وتحالف ضد راجح عدوهما المشترك كما أرسل معه إلى فرنسا عند عودته إليها اثنين من رجائه هما سليمان « المرشد العالمى » ، ولامانا ، اظهرا لحسن مودته للحكومة الفرنسية .

غير أن راجح لم يكذب يعلم بأمر تلك المخالفة الموجهة ضده حتى
هاجم عبد الرحمن جورانج واستولى على مملكته بأسرها هذه المرة



(لامانا مبعوث الباجورمين) (سليمان «المرشد العالي» ومبعوث الباجورمين)
مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد ، وإن كنا قد ذكرنا هنا طرفاً من
هذه الأحداث فما ذلك إلا لنقول إن معركة مانهافا وإن كانت قد
فتحت الطريق أمام راجح إلى بحيرة تشاد ومملكة بورنو فقد أضافت
إلى أعدائه عدواً جديداً هو السلطان جورانج الذي لم يتورع
في سبيل الاحتفاظ بسلطانه من أن يلعب دور الخائن الذي مكن
بمساعده للفرنسيين ووضع بلاده تحت تصرفهم من تضییع جهود
راجح في مكافحة الاستعمار الأجنبي البغيض .

* * *

فتح الطريق إذن أمام راجح ، ومضت قواته وهي تنتقل من

نصر إلى نصر تزداد عددا وقوة حتى تمكن في النهاية من الاستيلاء على لوجون واكنساح مملكة بورنو فجأة . .

وكان يحكم بورنو سلطان طاعن في السن يدعى هاشم . أراد برغم ما اشتهر عنه من حب للقتال وتفوق في فنونه أن يتعاهد مع راجح حقنا للدماء وتجنبا لبلاده أهوال الحروب. ولكن ابن اخته وكان يدعى «خيارى» لم يرتح إلى رغبة خاله تلك وعدها جبناً منه وخيانة لببله فلم يتردد في قتله وتولى الحكم بدلا منه ثم قاد رجاله وسار بهم لمواجهة راجح فلاحق به بالقرب من مدينة كوكا عاصمة البلاد .

وكان «خيارى» هذا مقاتلا ممتازا ورث الخدق في القتال عن خاله الذى قتله كما كان جيش البورنويين يتألف من فصائل ممتازة التدريب والتسليح فدام القتال بين القوتين نهارا بأكمله فاز فيه «خيارى» في النهاية على راجح فوزا عظيما واستولى على معسكره واعمل فيه السلب والنهب مرتكبا من الفضائح ما تقشعر لهولة الأبدان .

في هذه المعركة العنيفة جرح فضل الله ابن راجح جرحا بليغا ، وكان غضب راجح لهزيمة غضبا عاصفا فجمع رجاله ولا مهم في عنف وشدة على جبنهم وخورهم كما لام قواده وأغلظ لهم القول حتى أقسموا أمامه أن يغسلوا عار هذه الهزيمة أو يموتوا في ميدان

القتال . وأعاد راجح توزيع الذخيرة على قواته وبات طول الليل يحرضهم ويبث فيهم العزم فما كاد يشرق الصباح حتى هاجم معسكر البورنويين من جديد وكان هؤلاء لا يتوقعون أن يلم راجح شعثه بهذه السرعة وأن يعاود الهجوم عليهم بعد هزيمة الأمس فأخذوا على غرة وطار صوابهم ، ولم يستطيعوا الصمود طويلا أمام هذه المفاجأة واصرار راجح على الثأر فولوا الأدبار أما « خيارى » ، فعندما استيقن من هزيمته وضاعت جهوده فى حصن رجاله على الثبات والدفاع نزل من فوق جواده واستوى واقفاً على الأرض مفضلاً أن يقع فى الأسر عن أن يركن إلى الفرار كالجبناء .

ولما مثل بين يدى راجح سأله هذا : « اين ماسككم خيارى ؟ » فأجاب خيارى فى تحد : « ها هوذا واقف أمامك لا يطلب منك رحمة أو شفقة . . » والواقع أن دين خيارى كان ثقيلا لا يشفع فيه طلب الرحمة أو الشفقة بعد أن قتل من قتل من النساء والأطفال فى معسكر راجح فى الليلة الماضية ومثل أبشع تمثيل بمن وقع فى يده حيا من الأسرى . فأمر راجح بتنفيذ حكم الإعدام فيه .

استأنف راجح بعد انتصاره هذا السير إلى مدينة كوكا عاصمة بورنو فوجدها مخربة مهدمة فنشط إلى تعميرها من جديد كما نشط إلى إخضاع باقى أطراف مملكة بورنو التى لم تظهر غير مقاومة ضئيلة

بعد مصرع سلطانها خياري حتى استتب له الأمر نهائياً
في تلك الأصقاع .

* * *

باخضاع بورنو أصبح رابع سلطانا لمنطقة واسعة الأطراف
مترامية الأبعاد دام حكمه لها أكثر من سبع سنوات أحبه خلالها
شعبه من البورنويين وغيرهم وأعجبوا به إعجاباً شديداً حتى تنازلوا له
عن كل شيء وأحلوه من أنفسهم محل القائد والزعيم .

وبورنو هذه ولاية اسلامية كبيرة تقع في السودان الأوسط
ويحدها شرقاً بحيرة تشاد ونهر شاري الذي يفصلهما عن وداي
وباجوري وتبلغ مساحتها حوالي ١٤٠ ألف كيلو متر مربع وعدد
سكانها نحو خمسة ملايين نسمة تبعاً لتقدير الرحالةين بارث ونايتنجيل
الذين زاراها حوالي عام ١٨٧٠ أي بمعدل ثمانية وثلاثين شخصاً لكل
كيلو متر واحد وهو معدل يعتبر عالياً بالنسبة لولاية افريقية ذات
مساحة كبيرة كهذه ، وتتبع بورنو من ناحية طبيعة أرضها وتربتها
حوض بحيرة تشاد الذي يكون سهلاً عظيماً يميل نحو الشرق بدرجة
قليلة غير محسوسة ويتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٢٥٠
و ٣٦٠ متراً وتخرقه بعض التلال هنا وهناك بينما تتوسطه مساحة
كبيرة من أراضي طفلية تغمرها المياه دون انقطاع .

وكان يسكن تلك المملكة في أوائل القرن الثاني عشر قبائل
همجية متوحشة أهمها قبيلة «سو» ، So التي اشتهر أفرادها بالقوة
وشدة البأس . غير أن أحد ملوك ولاية كانم من يدينون بالدين
الإسلامي ويدعى «دومانا» لم يلبث أن هاجمها فانصلت بذلك
الحرب بين الولايتين ودامت قرابة قرنين من الزمان . وفي أواسط
القرن الرابع عشر كان أحد ملوك كانم قد اتخذ من بورنو
قاعدة له ولكن قبائل البولالا تمكنت من الهجوم عليه وطرده
منها واحتلالها ومنذ ذلك الوقت بدأت بورنو تأخذ شكل المملكة
الموحدة المستقلة . ولقد ذكر ابن بطوطة أن أحد ملوك ولاية
كانم استطاع في منتصف القرن السادس عشر أن يأخذ بثأر
أجداده من قبيلة البولالا وأن يضم بورنو إليه ويجعل منها إحدى
ولايات مملكة كانم .

وتعاقبت بعد ذلك حروب طويلة بين سكان بورنو وسادتهم
من حكام كانم نما خلالها بين سكان بورنو الاحساس بالشعور
الوطني حتى استطاع واحد منهم هو «الفقيه محمد الغانم» بمساعدة
الوطنين من العرب طرد الفاتحين والاستقلال ببورنو وبناء مدينة
«كوكا» التي اتخذت منذ ذلك الحين عاصمة للبلاد .

وخلف الفقيه محمد غانم في حكم بورنو عام ١٨٣٥ ابنه عمر

فاستطاع أن يوطد استقلال بلاده بعد حروب طويلة في الخارج والداخل فنها قتل في احدى تلك المعارك حوالى عام ١٨٥٠ خلفه أخوه عبد الرحمن الذى اشتهر بالعدل والرحمة غير أنه كان ضعيف الارادة فلم يقو على رجال الاقطاعيات فى الداخل وغزوات القبائل الرحالة ومناوشات ملك ودّائى على الحدود ولهذا لم يلبث ابنه السلطان هاشم أن أفصاه عن الحكم وهو السلطان الذى كان يحكم بورنو عندما بدأ راج يوجه قواته لغزو تلك المملكة .

* * *

من هذا التاريخ الموجز الذى سقناه عن بورنو وعن صلابة سكانها وشدة كراهيتهم للغزاة نستطيع أن نفهم سرائرهم فى قتال راج . غير أن راجا ما كاد يخضع هذه المملكة العنيدة حتى نشط إلى تنظيم اداة الحكم فيها وبث معالم الحضارة بين ربوعها حتى بدأ الأهالى يحسون فحلا بأن عهدا من الرخاء قد أقبل مع هذا الحاكم الجديد وبدأ شمرأوم يقصدونه بالمديح ويطرقون أبواب عدله بالقصائد الطوال . فكان من بين ما قيل قصيدة لعالم برناوى ثبت منها الآيات التالية كمثلى تاريخى هام (١) :

(١) كتاب اسفار المرحوم محمد عثمان المبرغنى فى غرب افريقيا وانجلترا وعودته للسودان مع رفقاته . بعثة نيجيريا - مطبعة بيروت الصفحة الداخرة .

لما فشا الظلم لدى البرنوح (١) وعمم العصيان كل الروح
وصار كل الناس تابعينا أمر الهوى والشر فاعلينا
فأرسل الله اليهم راجحا من أرض خرطوم أناهم فاتحا
والواقع أن راجحا قد اتبع في حكمه لتلك البلاد أسلوبا جديدا
دل على أن مقدرته في حكم الشعوب لا تقل عن مقدرته الحربية
الفائقة . فقد قسم البلاد إلى مقاطعات جعل على كل واحدة منها
حاكما من أعوانه المقربين إليه . ولكن لما كان هؤلاء غرباء عن
أهل البلاد يجهلون عوائدهم وتقاليدهم فقد عين إلى جوارهم حكاما
محليين من بين الأهالي أنفسهم ليكونوا واسطة بينهم وبين حكام
المقاطعات في تحصيل الضرائب وتنفيذ الأوامر .

وكان الحاكم العام في النهاية وهو راجح يمثل السلطة العليا التي
تصدر عنها الأوامر والقوانين وبذلك ضمن ولاء الأهالي وولاء
رؤسائهم المحليين له وأثبت ذلك النظام نجاحه طوال الفترة التي
قضاها راجح سلطاناً لتلك البلاد . أما عن الشؤون المالية فقد
جعل راجح على كل مقاطعة قدرا من الضرائب يدفع نصفه لحاكم
المقاطعة والنصف الآخر لراجح الذي كان يتولى منه الانفاق على
جلب المهمات وصيانة الأسلحة وإنشاء المباني الصحية المريحة
في أنحاء البلاد ، وقد كان مما يزيد في دخل راجح ما يغنمه من

(١) البرنوح هم قبائل البورنويون .

الغزوات التي كان يشنها على القبائل المحيطة بمملكته والتي دأب على القيام بها لتوسيع أراضيه وبسط سلطان البورنويين على البلاد المجاورة له .

لهذا كله لم يكن عجباً أن يشهد اميل جنتيل في كتابه « سقوط امبراطورية رايح » ان البورنويين قد أحبوا ذلك الزعيم القوي الحازم الذي اختلط بالآهالي واندج معهم حتى أصبح واحداً منهم فتنازلوا له عن كل شيء واستكانوا في ظلال عدله وحزمه إلى حياة طيبة هادئة وهم الذين رأيناهم لا يصبرون على غزو أو يستنيمون لضيم . ويختم جنتيل شهادته تلك بتعليق صادق حين يستطرد فيقول : « وهكذا اثبت رايح أن حسن النظام في العمل جدير في كل زمان ومكان أن يفضى إلى أعظم النتائج وأفضلها ^(١) . »

(١) كتاب « سقوط امبراطورية رايح » . صفحة ٢٣٧ .

رابع ... الامبراطور ..

« دكوة العاصمة الجديدة - سراى رابع -
رابع وشئون أسرته - كلمة الحق فى رابع -
حواء ابنة رابع - غزو مملكة سو كوتو . »

لم يكدر رابع يستقر فى مملكة بورنو ، ويرسى قواعد حكمها على النحو الذى فصلناه فى الصفحات السابقة حتى عمد إلى نقل العاصمة من كوكا إلى مدينة دكوة جنوبى بحيرة تشاد .

ولقد قدر لمدينة دكوة التى اختارها رابع موقعا يتوسط مملكته الواسعة ، أن تشهد خلال حكم سيدها عصرا زاهيا جعل منها بحق المدينة الأولى فى وسط أفريقيا . . فقد كان طبيعيا وقد استتب الأمن فى تلك البقاع تحت إدارة رابع الحازمة أن تنشط فيها حركة التجارة وأن تصبح دكوة مركزا عاما لها . ولقد جذبت إليها دكوة جميع سكان وسط أفريقيا على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومللهم ونحلهم من الأسود الجالك إلى الأبيض الناصع فكان من سكانها الطرابلسى والجزائرى وقبائل الهوسا والجلابة ، من يقطنون فى الأصل شواطئ النيل ، إلى جوار الباجورمين وسكان بورنو الأصليين . كل هذه الخلائط من الأجناس البشرية كانت تعيش

فى تلك المدينة المزدهرة جنبا إلى جنب بملابسهم المختلفة
وعاداتهم المتباينة .



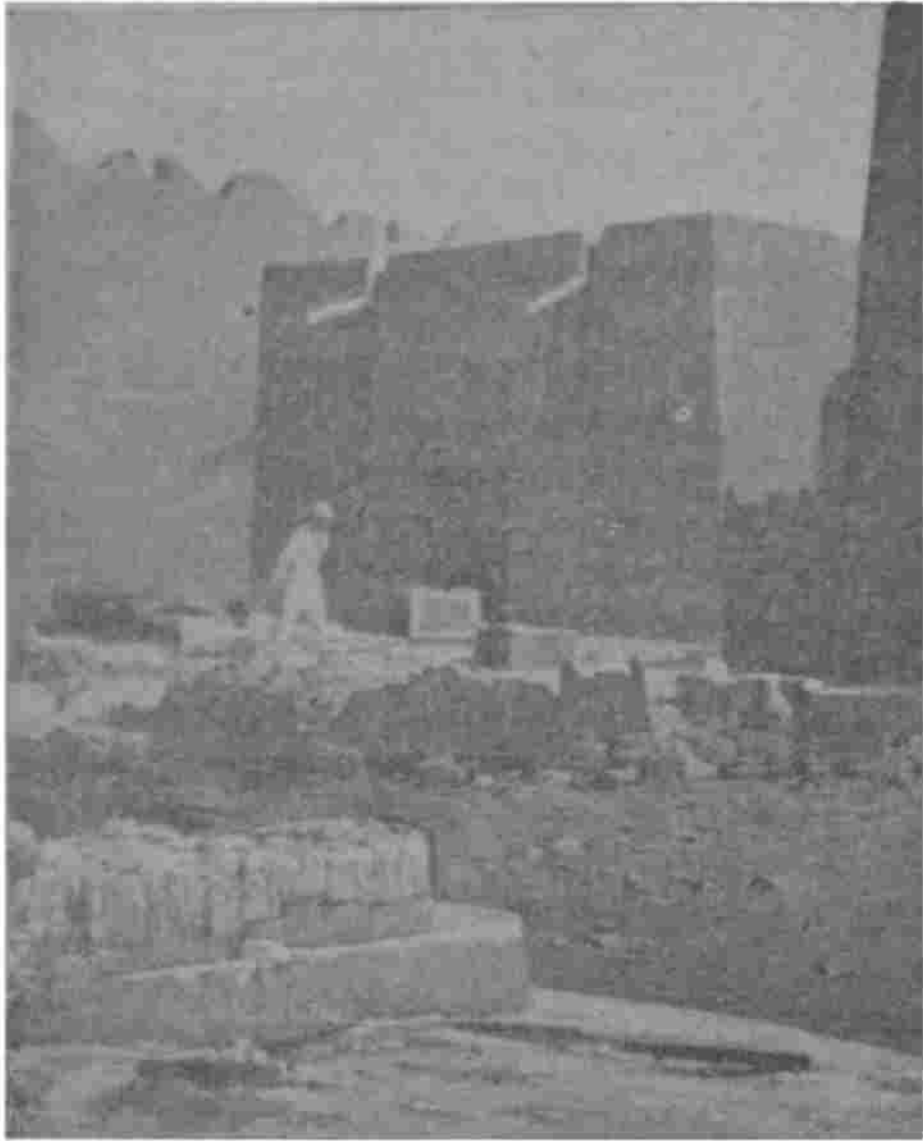
رابع الامبراطور فى عاصمة مملكة دكوة

وكانت مدينة دكوة كما أنشأها رابع تتكون من قسمين : قسم
خارجى يتوسطه ميدان فسيح يتجمع فيه سوق المدينة ويجد فيه
السكان ما يشاؤون من الأقمشة القطنية والحريرية والسكر والبن
والشاي وأدوات المنازل والحلى والمرجان والذهب . وكان هذا
القسم يضم إلى جوار السوق منازل شيدت فى الخلوات لمشاهير

الرجال في تلك الأراضى وكان بينها وبين بعضها مسافات متباعدة كما كانت مرتبة ترتيباً هندسياً رائعاً . . أما القسم الداخلى فقد كانت له جدران وحوائط منتظمة وأسوار تحتوى على قصور لبعض أولى الشأن وكان أهمها بالطبع سراى راج .

ولقد وصف اميل جنتيل سراى راج بعد أن دخل دكة منتصراً عقب مقتل سيدها وأقول نجمه فقال إنها كانت بشوارعها وطرقاتها وأبنيتها الداخلية وحجراتها أشبه بالمدينة المنسعة منها بالقصر . . وكان يحيط بتلك السراى سور يبلغ محيطه المائة متر ، وارتفاعه أربعة أمتار تقريباً ، وقد أقيمت عليه بوابة عمومية كبيرة الانساع ذات باب سميك ورتب بداخلها قبة واسعة لتكون محلاً للحرس ، وكان على الانسان أن يسير خلال خمس طرق ضيقة حتى يصل إلى الطوابق التى يسكنها راج وهى مشيدة من حوائط غليظة السمك وبالطابق الأرضى منها ثلاثة ابهاء متسعة يتوسطها بهور رئيسى كان يعقد فيه راج جلساته الخاصة بإدارة شئون مملكته كما يستقبل فيه كبار زواره ومبعوثى حكام الولايات إلى بلاطه . ولما كانت الأخشاب نادرة بالمدينة فقد جعل راج لهذه الابهاء نوافذ مزدوجة زودها بقماش قوى مصنوع صنفاً متقناً كما فرش أرضها بالسجاجيد والأسرة والمساند فكان الجالس فيها يتمتع بأصريه بصور الفخامة والجمال بينما يأتيه الهواء

رطباً منعشاً بعد أن يتخلل النوافذ المزدودة التي شيدت على نسق
خاص لتحقيق هذا الغرض .



سرای رابع من الداخل بمدينة دكوة
وغير بعيد عن تلك الابهاء كانت مساكن الحریم وهي لا تقل
دوعة أو فخامة عن سابقتها كما كان يوجد بالسرای أيضاً فناء

متسع لحفظ الذخيرة من البارود والمفرقات يؤدي إليه دهليز ضيق يحرسه رجال رابع الأشداء .

أما عن حياة رابع الخاصة فقد قيل إن زوجاته الشرعيات وخدمه وسراريه كانوا يبلغون جميعاً نحو الألف تقريباً وإن كان من الواضح أن هذا الرقم لا يخلو من مبالغة كبيرة . كما كان له ثلاثة أبناء هم فضل الله ، الذي تزوج بابنة السنوسي وحمل عبء الكفاح ضد الاستعمار بعد مقتل أبيه ، ومحمد نياي ، وحواء التي لعبت هي الأخرى دوراً كبيراً في حياة رابع الحرية ومشروعاته التي كان يعدّها لبسط سلطانه على من حوله من حكام الولايات .

وكان كل واحد من هؤلاء الأبناء يسكن في سراي تشبه سراي أبيه وإن اختلفت عنها في صغر حجمها . وقد اشتهر فضل الله ومحمد نياي بالفضيلة فلم يعرف عنهما أنهما أخذا من اللهب بما يأخذ به الشباب من أبناء الملوك وإن دل هذا على شيء فعلياً ما كان عليه رابع من عزم وشدة في تنشئتهم وتدير شؤونهم وشئون أسرته جميعها وحرصه على أن تكون هذه الأسرة في أتباعها لقواعد الدين وآدابه قدوة تحتذى لأهالي تلك البلاد فأثبت بذلك وعياً دقيقاً بما يجب أن تتحلى به الأسرة الحاكمة من آداب ومثل حتى تكون نافذة الكلمة وحتى تكون طاعتها واجبا محتوماً . .

والواقع أن الخلق الإسلامي ، ودستور القرآن في سياسة



— سرای محمد نیازی من الداخل —

النفس البشرية وتعلق رابع وإيمانه بذلك الدين الحنيف كل هذا قد لعب دوراً كبيراً في خلق الحاكم الصالح العادل من ذلك الرجل الذي كان لا يعرف غير لعبة السيف والمدفع . ولقد أثبت النجاح المضطرب الذي كان رابع يقطف ثماره يوماً بعد يوم والذي تمثل أول ما تمثل في تعلق البورنويين به وحبهم له ، أثبت هذا النجاح أن الذخيرة الدينية هي دائماً أفضل وأقوى من كل ذخيرة أو عتاد .. ولقد كان رابع حريصاً دائماً على أن يقيم شعائر الدين ، وأن يحبي سننه لا يشغله عن ذلك ما كان ينوء به من أعباء الحكم والحرب حتى روى عنه ، جاستون دي جارليك ، في كتابه ، حياة

السلطان رابع، صفحة ١٣٥ أنه بينما كان مشغولاً بحصار كاسورى وقد أقبل إليها من دكة بقوات عظيمة حل عيد الأضحى الكبير فأمر بتجنيته بإطلاق القذائف من مدافعه الثلاث التي كان قد غنمها بعد معركة تجباو (كما سيأتى فى الصفحات المقبلة ..) ولقد فعلت هذه القذائف التي أطلقها رابع شمالى كاسورى تحت أنف الأعداء وبصرهم أثرا بعيداً فى نفوس هؤلاء وهى إذ هزت جنبات المنطقة كلها فقد هزت معها قلوب أعدائه وعلتهم مقدار ما فى خصمهم من إيمان وقوة وتحدى ..

أما عن صرامة رابع وقسوته فقد روى المؤرخون الفرنسيون قصصاً كثيرة عنها لا تخلو من المبالغة التي يابها العقل كما أفاضوا فى الحديث عن العيون والارصاد التي قيل أن رابحاً قد بثها فى جميع أنحاء مملكته حتى انتشر بذلك التجسس وخيم على البلاد نوع من الحكم الدكتاتورى الخائف أخذ فيه كثير من الأبرياء بالعقاب بدون ذنب جنوه ..

وليس كل هذا مما يستحق التصدى له فإن الهوى والغرض فيما دسه هؤلاء عمداً على تاريخ ذلك المواطن البطل لأظهاره بمظهر الطاغية المتجبر على قدر كبير من الوضوح . وليس هذا غريباً .. فإن أغلب الذين أرخوا لحياة هذا الفاتح السودانى هم من بين أعدائه من الفرنسيين وليس الذى شاب تاريخ رابع من مفتريات

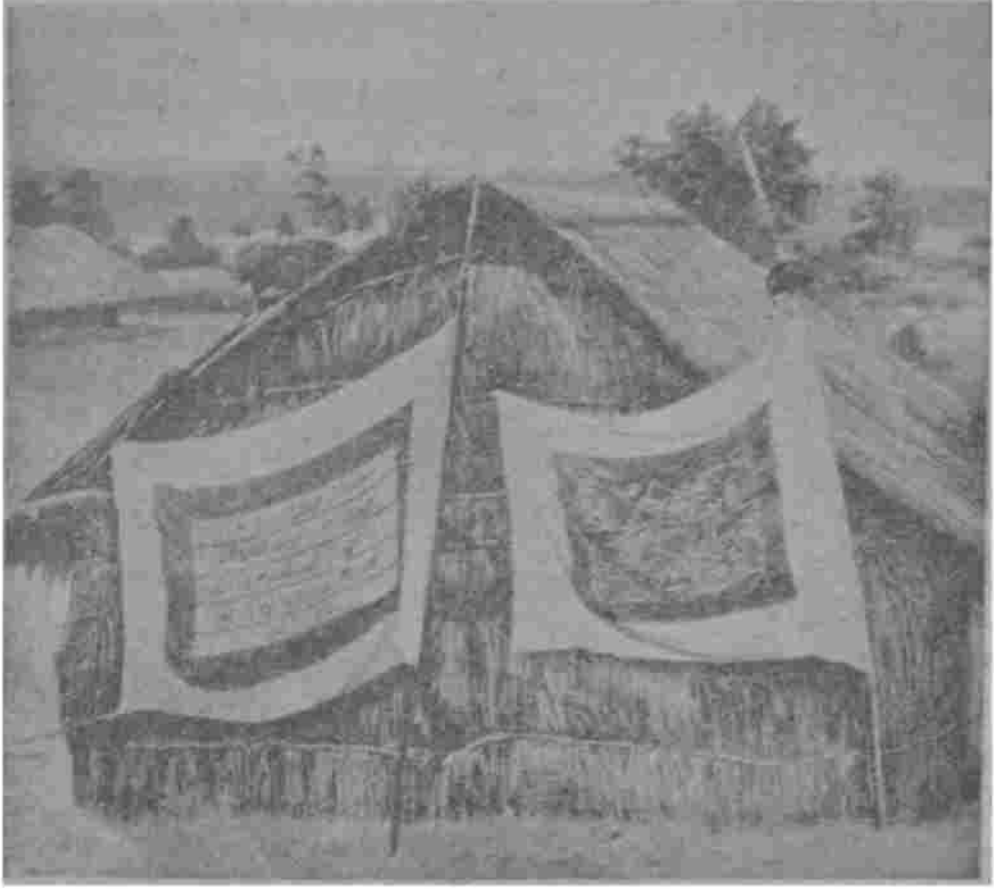
وأكاذيب بالجدید علینا فإن أغلب تاریخ أبطالنا قد كتب بأقلام
أعدائهم من المفرضین فتشابهت كلها فیما أصابها من مسخ وتشویه ..
ونحن هنا لا ندافع عن راجح دفاعاً متعصباً رخیصاً فنقع بذلك
فی الطرف الآخر من الخطأ الذی وقع فیہ أعداؤه ، كما لا نستطیع
أن ننكر أنه كان حازماً حقاً ، وصلباً وعنيداً إلى حد بعيد وفرق
كبير بین هذا كله و بین ما یتم به من قسوة وبطش وإرهاب ..
وأنت لا نستطیع أن نتصور عصامیا مثله استطاع أن یؤسس
بسيفه ملكاً كهذا ، وان یکافح استعماراً كالذی كلفه ما لم یكن
على شیء كثير من الحزم والصلابة . ولقد أحیط معسكر راجح دائماً
بالخونة من رجال جورانج والسنوسی وكان علیه إما أن یفتح
عینیه علیهم ویتربص بهم وإما أن یترك حیاته ومصیره نهبا
لمؤامرات هؤلاء الجواسیس الذین كانوا یعملون على تسلیمه
للفرنسیین .. حقا قد تكون هناك بعض الأخطاء الّتی لم یكن
بد من وقوعها ، وقد یكون هناك نفر من الأبریاء لقوا حتفهم
بغیر ذنب ، ولكن ما تكون حیاة الأفراد فی سبیل أمة وسلامتها ؟
إن حکم الشعوب فن لا یعترف بالعواطف ، والحرب حین
تكون من أجل حریة وطن واجب مقدس تكون فیہ الرحمة
ضعفاً والاین جبناً وخوراً ، والتشدد بمبادئ الانسانیة دعوة
إلى التکاسل والخنوع والتسليم ..

ومع ذلك فقد استطاعت كلمة الحق ، في فترات مختلفة ، أن تفرض نفسها على أقلام هؤلاء المؤرخين الموتورين . فأميل جنطيل الذي روى عن راجح الكثير من أمثال تلك الأكاذيب ، والذي يقول في موضع من حديثه عنه أنه قد فرض على أهالي بورنو حكما ارهايبا مظلما ، يعود في موضع آخر من حديثه فيقول ان البورنويين قد أحبوا هذا الحاكم القوي فتنازلوا له عن كل شيء . . . وكما يصفه بالقسوة والوحشية في بعض اجزاء من كتابه عنه ، لا يملك إلا أن يقرر في أجزاء أخرى منه أنه « بالمقارنة بين راجح ومن أخلفوه في حكم بورنو نجد أنه كان أفضلهم جميعاً ويفوقهم في كل شيء . . . فهو لم يكن قاسيا مثلهم ، وكانت الشجاعة من أبرز صفاته بينما كانوا هم يفتقرون اليها إلى حد بعيد .. (١) »

• • •

كان لراجح كما قدمنا ابنة تدعى « حواء » كثيرة الشبه بأبيها وكانت تمتاز بذكائها وشجاعتها كما كان لها ولع شديد بركوب الخيل كما يفعل الرجال فكانت تلبس دائما ملابس الشبان ولا ترى إلا ممتطية جوادها حاملة بندقيتها تشارك في معارك أبيها جنبا

(١) كتاب « سقوط امبراطورية راجح » اميل جنطيل ص ٢٥٢ .



خيمة راع وقد حلتها بعض آيات القرآن الكريم منقوشة فوق الأعلام
إلى جنب مع باقي الرجال حتى استطارت شهرتها في القتال ومهارتها
في الرماية وإصابة الهدف .
ولقد كان لهذه الفتاة التي ورثت عن أبيها حب المغامرة
دور كبير في شتونه الحربية . فقد تطلع رابع بعد الاستيلاء على
بورنو إلى غزو مملكة سكوتو الواقعة إلى الغرب منها وكان يحكمها
سلطان مسلم يرهق الأهالي بمظالمه وكان له ابن يدعى « حيانو »
وهو فني مثقف ذو شخصية مكتملة فكان في نزاع مستمر مع أبيه

من أجل أخطائه ومظالمه ضد أهل البلاد حتى اضطر في النهاية
إلى الهرب من وجهه مع مائة من الفرسان الأشداء والالتجاء إلى بلدة
د بالدا ، في مقاطعة مندارا . وشجع هذا راجحا على انتهاز الفرصة
والاستعانة بالإبن الهارب في غزو مملكة أبيه والاستيلاء عليها .
فانصل بحياتو ونجح في تزويجه من ابنته حواء بعد مقتل زوجها
الأول في إحدى المعارك .

وقامت حواء بدور كبير في إغراء حياتو ونشجبه على الثورة
ضد أبيه حتى استجاب لها أخيرا وقبل أن يقرر جيشا يزوده به
رابع لغزو مملكة سكوتو . ولكن هذا الجيش لم يلبث أن هزم
في معركة دارت شمالي د كاسوري ، قتل فيها حياتو بالرغم من
بلائه المجيد وما أبدته حواء خلال المعركة من ضروب الشجاعة
والاستبسال .

وبموت حياتو في تلك الواقعة خاب أمل حواء في تنفيذ
مشروعات أبيها الخاصة بالاستيلاء على سكوتو فعادت إليه وتزوجت
للمرة الثالثة من أحد أفراد قبيلة الجلابة ويدعى د عبيد ، الذي
عاشت معه بعد هذا زمنا طويلا . .

الجالوسون الفرنسي

« اميل جنتيل - تحالعه مع السنوسى - فوق
نهر شارى - جنتيل يزور ماسينيا - بحيرة
تشاد - رسل السنوسى وجورانج - عودة
الجالوسون إلى فرنسا - بيت المنكبوت »

مامن مؤرخ أراد أن يتعرض لتاريخ راج استطاع أن يغفل
اسم اميل جنتيل أو يغفل الرجوع إلى كتابه الذى نشره تحت
عنوان « سقوط امبراطورية راج ، . .

ووالواقع ان اسم اميل جنتيل وارتباطه بسقوط امبراطورية
راج وبالأحداث التاريخية الهامة التى دارت فى مناطق السودان
الوسطى فى الفترة الواقعة بين أعوام ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ليكمل
من المستحيل على من يؤرخ لتلك الحقبة الحاسمة أن يغفل عن تتبع
جهود ذلك المبعوث الفرنسى فى تلك البقاع والدور الذى لعبه
فى تطور الأمور على ذلك النحو الذى انتهت إليه . .

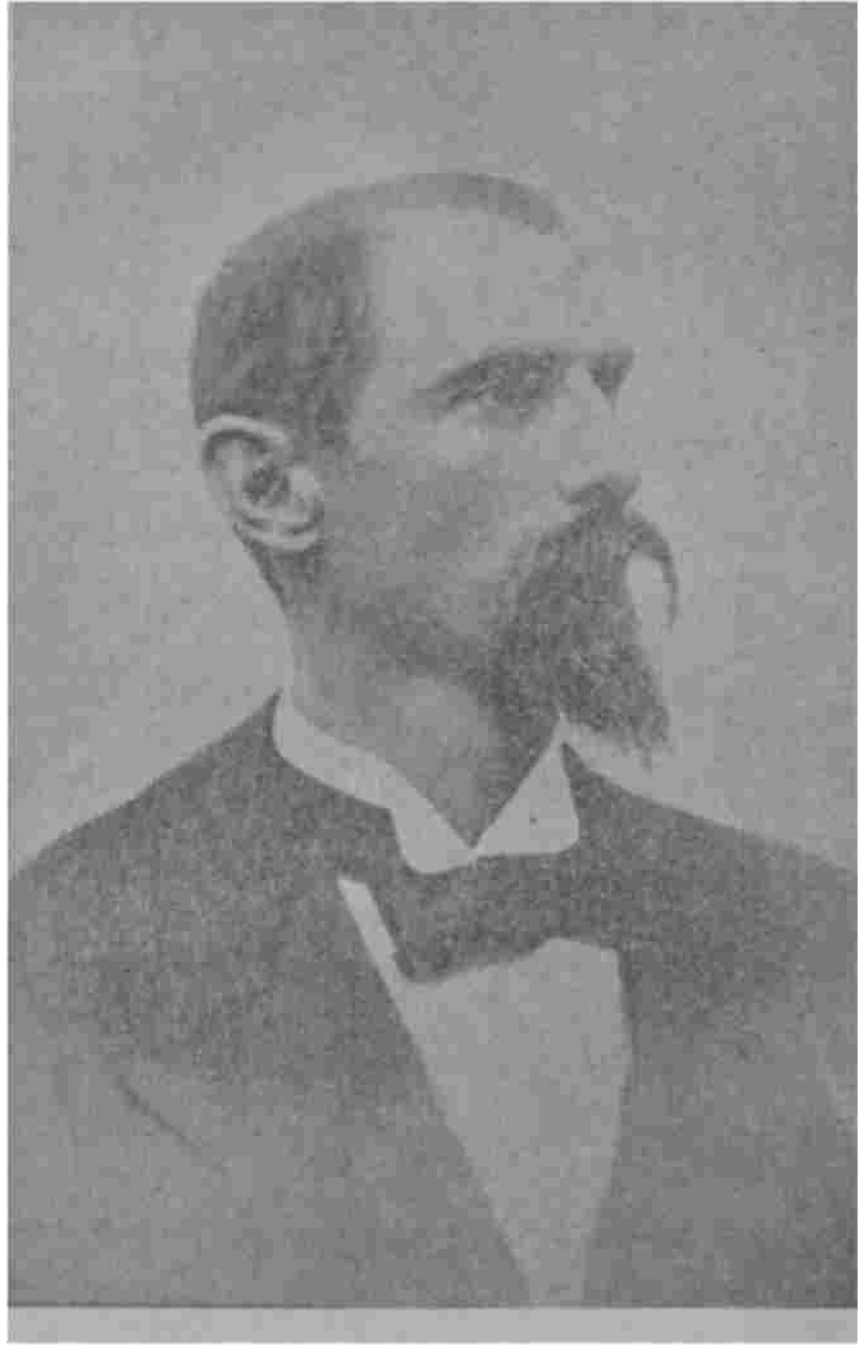
ولقد ولد اميل جنتيل هذا فى فرنسا فى عام ١٨٦٦ ثم خدم
فى البحرية الفرنسية التى لم يلبث أن تركها عندما وقع عليه اختيار
الحكومة ليكون من بين مبعوثيها إلى الكونغو حيث ارتاد منطقة

السوفا العليا . وفي عام ١٨٩٥ عندما كان رابح في أوج مجده عاد جنيتل موفداً من قبل الحكومة الفرنسية ليرتاد مناطق نهر شارى وبحيرة تشاد ويمهد لانضمام تلك المناطق إلى البلاد الواقعة تحت النفوذ الفرنسى فى قارة أفريقيا . ولقد استغرقت بعثة جنيتل الأولى هذه الأعوام ما بين ١٨٩٥ ، ١٨٩٨ كما منح من أجلها المدالية الذهبية الكبرى المقدمة من الجمعية الجغرافية الفرنسية وعدته الحكومة الفرنسية أحد أبطالها لما عادت به تلك البعثة على فرنسا من نتائج باهرة .

وكان من أول هذه النتائج تسوية الموقف بين السنوسى والفرنسين وهو الموقف الذى كان لا يزال معلقا بعد مقتل كرامبل كما قدمنا ، وعقد معاهدة مع السلطان جورانج وضعت الباجورمى بمقتضاها تحت الحماية الفرنسية نهائيا عام ١٨٩٧ . وبهذين العساين ضمن جنيتل لنفسه صداقة قوتين هامتين ، بل ضمن لنفسه أيضا كافة المساعدات التى كان على سلطان جورانج بمقتضى المعاهدة التى أبرمها أن يقدمها لجنيتل ضد عدوهما المشترك رابح . .

* * *

بدأ جنيتل رحلاته من الكونغو الفرنسى على السفينة « ليون بلوت » التى اعتزم بها اختراق نهر شارى وكان معه على ظهرها ثلاثة



الځاسوس الفرنڊى . . . لامل جننيل

من الفرنسيين وأحد التراجمة وخمسون من السنغاليين المسلحين بنحو
ثمانية وخمسين بندقية .

وقبل أن يبدأ جنّيل سيره من « جريبنجى » اتصل به مبعوثو
السنوسى وكان على رأسهم رجل يدعى صلاح الطرابلسى ولم تلبث
العلاقات بينه وبينهم أن أصبحت طيبة للعناية حيث تم التفاهم على
حادثه مقتل كرامبل وكيف أن السنوسى برى منه تماما وأن
المسئولية كلها فيه تقع على رابع . غير أنه حدث أثناء عودة هؤلاء
المبعوثين إلى ديارهم أن هاجم الوثيون من رجال قبيلة
التومباكوس Tombacos وقتلوا « صلاح الطرابلسى » ونهبوا
متاعه فظن السنوسيون أن هذا الحادث قد تم بتحريض من
جنّيل انتقاما لمقتل كرامبل وكادت بذلك رحلة جنّيل تتعرض
للفشل من أولها لولا أنه سارع بإزالة نتائج ذلك الحادث مظهرا
برأته من التحريض على تلك الجريمة كما توسط لدى الوثنيين لإعادة
الأشياء المسروقة وهكذا مر الحادث بسلام واستطاع جنّيل
فى النهاية أن يغادر جريبنجى وقد اطمأن تماما إلى موقف
السنوسى منه . .

بدأ جنّيل بعد ذلك يمتخر بسفينته عباب نهر جريبنجى أحد
روافد نهر شارى مصعدا فيه حتى بلغ المجرى الرئيسى للنهر بعد رحلة
طويلة بين مختلف القبائل القاطنة على ضفافه والى اختلافت طريقها

فى استقباله : فتمد توجست بعضها خيفة منه بينما رحب به بعضها
الآخر ترحيبا لم يخل مع ذلك من الحذر والقلق . وعلى العموم
لم يصطدم جننيل خلال تلك المرحلة من رحلته بأية متاعب حقيقية
مع سكان تلك المناطق الذين ولا شك قد أخذهم الرعب لمرأى
سفينته وهى تشق صفحة النهر حتى سموها « بالمنزل العائم فوق سطح
الماء » بالرغم من أن الفئة المثقفة منهم كانت قد سمعت عن المراكب
البخارية من الذين قاموا بنادية فريضة الحج . .

ولقد كتب جننيل بعد ذلك فى معرض التحدث عن شعور
الاهالى أزاءه يقول : كان الخوف هو الشعور البادى على الاهالى
نتيجة قدومنا المفاجىء . وكانوا ينساملون من أين أتينا وإلى أين
وجهتنا . هل جئنا لمصادقة سلطان باجورى أورابح . . وغير
ذلك من المسائل العامضة . .

والواقع أن حيرة الاهالى هذه وجهلهم بحقيقة أمر تلك
البعثة وهل هى حليفة لأربح أم لجورانج . وهما القوتان اللتان
كانتا تتنازعان النفوذ فى تلك المنطقة ، هى التى مكنت جننيل من
أن يخترق تلك البلاد دون أن يلقى مقاومة ما حتى أمكنه أن يصل
فى النهاية إلى بلدة « بوجومان » على ضفاف نهر شارى العليا .

أقام جننيل فى بوجومان بعض الوقت يجمع المعلومات
ويتصل عن طريق الرسل بالسلطان عبد الرحمن جورانج فى عاصمته

ماسينيا . ولقد أحسن أهالى تلك البلدة التابعة للسلطان جورانج استقبال جنيل ، كما استطاع هو أن يتعرف من إنصالة بهم على الكثير من أحوال البلاد وكيف أن الباجورى ما كادت تخرج من الحرب التى خاضتها عام ١٨٧٠ ضد مملكة ودّاي حتى أصيبت بحملة رابع (التى سبق ذكرها) والتى كانت آثارها ما زالت باقية حتى ذلك الحين . ولم يغب عن جنيل أن وجود رابع فى مملكة بورنو يعتبر خطراً دائماً على الباجورمين قد يدفعهم إلى الترحيب بمخالفة النفوذ الفرنسى فعمل على استغلال الموقف لصالح حكومته بعقد معاهدة التحالف بينه وبين السلطان جورانج .

وبعد اثني عشر يوماً من إقامة جنيل ببلدة بوجومان وصله الرد من السلطان على رسالته إليه التى كان قد حملها إلى العاصمة أحد رجاله من السنغاليين يدعى أبا بكر وبالرغم من أن الرد كان مهماً إلى حد بعيد فإن « أبو بكر » عاد فى نفس الوقت فى صحبة ثلاثة رجال من حاشية السلطان الذين كانوا يتمتعون بشقته إلى حد بعيد . وكانت مهمة هؤلاء الرجال أن ينقلوا إلى جنيل سرور السلطان بمقدمه وترحيبه بمقابلته التى يستحسن السلطان أن تتم فى العاصمة نفسها ماسينيا .

عندئذ وجد جنيل أن الفرصة قد سنحت فعول على زيارة ماسينيا ، متخذاً إليها طريق نهر « أريجيج » أحد روافد نهر شارى .

وأحسن السلطان جورانج استقبال ضيفه في مظاهرة عسكرية
باهرة وتم في هذه الزيارة عقد المعاهدة المذكورة كما زود جورانج
الجالسوس الفرنسي باثنين من الأدلاء ليقودا رحلته إلى بحيرة
تشاد بالرغم من أنه كان يرى في محاولة اختراق مناطق رابع
مجازفة خرافية غير مأمونة العواقب .

استأنف جننيل بعد أن فرغ من تحقيق أهدافه في الباجورى
رحلته عائداً إلى نهر شارى ووجهته بحيرة تشاد كما قدمنا ماراً
بمدينة لوجون، و«كاسورى»، وكانت كاسورى هذه مدينة كبيرة
محصنة يبلغ تعداد سكانها أكثر من اثني عشر ألف نسمة تحيط
بها أسوار مرتفعة سميكه تمتد على جبهة طولها أربعة آلاف متر
وكانت منازلها شاهقة الارتفاع تحتوى على أدوار تزيد في
الارتفاع عن هذه الأسوار وكان رابع قد تركها قوة كبيرة
لحمايتها كما وضع في مدينة «جولفى» هى الأخرى حامية كبيرة وعن
طريق هاتين الحاميتين كان يسيطر سلطانه على دلتا نهر شارى .
ولكن لسبب لايزال غامضاً حتى الآن كان رابع قد استدعى
هاتين الحاميتين إلى عاصمته «دكوة» قبل وصول جننيل إليهما بنحو
ثلاثة أيام وبهذا انفتح الطريق أمام جننيل حتى أشرف على بحيرة
تشاد في صباح ٢ نوفمبر ١٨٩٧ دون أن يعترض طريقه أحد . .
وتشاد بحيرة في السودان الوسطى تقع بين ولاية كانم

في الشمال الشرقي وبورنو في الجنوب الغربي على ارتفاع يبلغ ٢٦٠ متراً عن سطح البحر وهي تشبه تقريباً المثلث المتساوي الأضلاع حيث تقع زاوية الرأس في الجنوب الغربي. وتبلغ مساحة البحيرة حوالي ٢٠.٠٠٠ كيلو متر مربع وهي عبارة عن حوض كبير مغلق يمتد إلى أراضي بنوا ويحدها من الغرب نهر النيجر وفي الجنوب الأوبنيجي والكونغو وفي الشرق النيل الأبيض. وتتغذى البحيرة من الأمطار عن طريق الرياح المشبعة التي تهب من خليج غينا والتي تتساقط ابتداء من شهر يوليو حتى شهر أكتوبر كما نصب فيها الأنهار الآتية من الغرب والجنوب وأهمها نهر شارى الذي تصب مياهه في الجزء الجنوبي الغربي من البحيرة وهو أكثر أجزاء البحيرة عمقاً أما الأجزاء الشمالية والجنوبية الشرقية فهي صخرية وتحيط بالأنهار التي تصب بها هناك مجموعات من الجزر تسمى أرخبيل كورى وبودوما تجعل من الصعب سير المياه مباشرة.

وبفضل ما يحمله نهر شارى ورمال كأنهم نتيجة لهبوب الرياح الشمالية الشرقية في فصل الشتاء يتعرض الجزء الشرقي أكثر فأكثر لتكوين مثل هذه الجزر التي تمتد من الجنوب الغربي حتى الشمال الغربي.

وتشبه بحيرة تشاد الكثير من البحيرات الإفريقية التي تتضائل مساحاتها تدريجياً، ومن المحتمل أن هذه البحيرة كانت تصب

في الأزمان الغابرة عندما يحل موسم الفيضان في بحر الغزال من
جته الشمالية الشرقية ، ومياه هذه البحيرة عذبة ويحيط بالكثير
من جزرها الأشجار والحشائش التي يتغذى منها البقر والخيول .

* * *

كان جنتيل يعرف أن نجاح رحلته هذه إنما هو مدين به في
الواقع إلى تلك الظروف الغامضة التي جعلت رابح يحجم عن
مهاجمته . ولقد كان سكوت رابح هذا مدعاة في الواقع إلى الشك
والريبة أكثر منه إلى الأمن والسلام . لذا فقد قرر جنتيل العودة
سريعاً مفضلاً ألا يحمل الظروف أكثر من ذلك ولينجو من
المذبحة المروعة التي كان معرضاً لها في أي وقت يفكر فيه رابح
بالتعرض بحافله لتلك القافلة الهزيلة التي يقودها والتي لم يكن
يزيد تعدادها عن الخمسين رجلاً . .

قرر جنتيل إذن مغادرة تلك البلاد سريعاً مكتفياً بما أحرزه
من نتائج سياسية مع السنوسي وسلطان الباجورمي حامداً للظروف
أنها جنبته الاحتكاك بـ رابح الذي كانت شهرته تصدمه في كل
خطوة من خطواته ، أو الالتقاء بمصير كمصير سلفه كرامبل .
ولما كان قد عول على أن يصحب معه عند عودته إلى فرنسا
مبعوثين يمثلون السنوسي والسلطان جوارنج ليسوقهم كأعلام
النصر في مواكبه هناك وليدلل بهم على مقدار ما أصابه في تلك

البقاع من ظفر ونجاح لذا فقد أرسل إلى السنوسى طالباً منه أن
يوفد إليه اثنين من أعيان البلاد ليتشرفوا بزيارة فرنسا في صحبته
كما أرسل يطلب نفس الطلب من السلطان جوارنج .



الحاج تكور . مبعوث السنوسى أحمد . سفير الباجوريين الأزرج . مبعوث السنوسى الآخر

واستجاب السنوسى وسلطان الباجورى لطلبات حليفهما
الجديد . . فأرسل الأول اثنين من رجاله هما الحاج تكور
والأزرج ، كما أرسل الثانى سليمان ، أحد الدليين اللذين اصطحبا
جنتيل إلى بحيرة تشاد وكان على شهرة كبيرة بمعرفة تلك المناطق
حتى كانوا يسمونه المرشد العالمى ، ، وكان معه رجلان أحدهما
يدعى أحمد والآخر يدعى لامانا . . فاصطحب جنتيل كل هؤلاء
وعاد إلى فرنسا التى استقبلته استقبال الغزاة الفاتحين وخلعت
عليه من الجوائز والهدايا ما يتناسب وما أداه للاستعمار الفرنسى
من خدمات فى تلك الأراضى البكر ..

ولقد وصف جنتيل بنفسه ذلك الاستقبال الذى لقيه عند عودته فقال : « ولقد قوبلت فى باريس مقابلة عظيمة أثرت فى نفسى كما نلت جوائز كثيرة وكنت منشرح الصدر بتقديمها إلى حيث نلت شرفا عظيما فى مجلس الوزراء باستعمار الأماكن والأراضى والبلاد التى اكتشفتها .. » (١)

ولكن سرور جنتيل هذا لم يدم طويلا فان الأخبار السيئة لم تلبث أن وصلت إلى فرنسا بعد ذلك . كانت أداة راجح الحرية التى سكنت على جنتيل كل ذلك الوقت قد بدأت الآن تتحرك وتضرب ضربتها لتطيح بكل ما كسبه الجاسوس الفرنسى فى رحلته ولتجعل من إدعائه بأنه قد نجح فى استعماره لتلك الأماكن والأراضى والبلاد كذبة لا ينهض على صدقها أى دليل ..

وكأنى بكل ما تركه جنتيل فى تلك المناطق من أثر ، وكل ما حققه لبلاده من كسب طوال الأعوام الأربعة التى استغرقتها رحلته ، وكل الجهد الذى بذله فى عقد المحالفات مع السنوسى والباжورمين .. كأنى بكل هذا لم يعد أن يكون بيتاً من العنكبوت ما كاد راجح ينهض له حتى تحطم وهوى مزقا وانقاضاً وأصبح أثراً بعد عين من قبل أن تخمد أصدااء الصيحات التى أرسلها إميل جنتيل فى فرنسا معلنة عن نصره الموهوم .

(١) « سقوط امبراطورية راجح » مؤلفه إميل جنتيل صفحة ١٠٤

انتقام راجح ...

« راجح يتنزه إلى المطر — معاينة القبائل —
ماسينيا تحرق — الباجورى فى قبضة راجح
— حملة برتونيه — موقعة تجباو —
حادثة يهاجل — شرف فرنسا » .

ما كاد جنتيل يغادر مناطق السودان الوسطى وقد خيل إليه
أنه قد ضمها نهائيا إلى النفوذ الفرنسى حتى تحرك راجح بقواته ليمسح
عن تلك البقاع آثار الخيانة التى نثرها جنتيل وراه فى الباجورى
وفوق ضفاف نهر شارى ..

إن راجح لم يغفل لحظة واحدة عن بعثة جنتيل ، وهو وإن كان
قد تركها تذرعا بلاده من الجنوب حتى الشمال فما كان هذا عن ضعف
أو خشية أمام تلك القافلة الهزيلة التى لا تكاد قوتها تزيد عن ثمانية
وخمسين بندقية ، وإنما لأن قافلة كهذه لا يمكن أن تكون ذات خطر
كبير على نفوذه الذى تحميه جحافل من رجاله الأقوياء المسلحين ..
والواقع أن راجح أراد أن يتجنب الاحتكاك بجنتيل وإعادة قصة
كرامبل من جديد دون مبرر هذه المرة حتى لقد رأيناه يسحب
حامياته من كاسورى وجولنى قبل أن يبلغهما جنتيل بأيام ثلاثة ..



فتوحات رابع في السودان الوسطى

ولكن النتائج التي نجمت عن تلك الرحلة لم تلبث أن نهت رابحا إلى خطرهما الحقيقي . . فقد كان ترحيب القبائل الخاضعة لنفوذه على ضفاف نهر شارى بتلك البعثة مضافا إليه تلك المعاهدة التي أبرمها جنثيل مع جورانج شيئا ذا خطر بالغ على سلطة رابح في تلك المناطق حفزه على الإسراع بالقيام بعمل مضاد يفسد على الاستعمار الفرنسي مقاصده ويعيد الأمور في إمبراطوريته الواسعة من قبل أن تفلت من يديه وتؤدي به وبجهوده السابقة التي بذلها إلى الدمار والنشبت . .

وهكذا هب رابح إلى إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل وصول بعثة جنثيل فبدأ بمعاينة القبائل التي رحبت بها وإشعارها بأن قبضته مازالت قوية وما زالت قادرة على البطش بكل من يعاون الاستعمار الأجنبي أو يرحب به . وما كاد يفرغ من هذا ويتلقى خضوع زعماء القبائل له من جديد حتى استدار بعد ذلك لمواجهة الباجورمين وتلقين سلطانهم درسا لا ينساها . .

تقدم رابح بقواته مجتازاً أراضي الباجورمين للمرة الأولى منذ معركة مانهافا السابقة دون أن يلقى أية مقاومة تذكر حتى بلغ العاصمة نفسها حيث يقيم السلطان . وكان جوارنج منذ بلغته أنباء تقدم رابح يرتعد خوفا من ملاقاته القائد العاضب فاما كاد يعلم بقرب وصوله إلى عاصمته حتى أحرقها وانسحب منها مولياً الأدبار نحو الجنوب ليلتقي بساتته من الفرنسيين الذين

تعهدوا بحمايته . وهكذا دخل رابع ماسينيا عاصمة الباجورمين
منتصراً فاتحاً دون أن يخسر واحداً من رجاله وسقطت في يده
تلك المملكة الواسعة التي ظن الفرنسيون أنها قد أصبحت ملكاً
لهم لأن سلطاناً خائناً ضعيفاً رضى أن يفتح لهم أبوابها
على مصاريحها ..

وكانت هذه هي الأنباء السيئة التي بلغت فرنسا وهي ما زالت
تحتفل ببطلها جنتيل لما قام به من انتصارات وهومة في حوض
نهر شارى ..

* * *

ما كادت أنباء تقدم رابع واحتلاله للباجورمى تبلغ فرنسا
حتى هب المسيو « جيلان » وزير المستعمرات الفرنسية لاتخاذ
الاجراءات الحاسمة والاحتياطات اللازمة للدخول مع رابع في
معارك واضحة صريحة تقرر مصير تلك البلاد نهائياً .

وكانت الحكومة الفرنسية قد سبق لها أن عينت عند وصول
جنتيل إلى فرنسا ضابطاً بحرياً يدعى بريتونيه Bretonnet ليحل
محلّه في الإدارة طوال مدة غيابه . ولكن ما كاد الموقف يتطور
على ذلك النحو حتى صدرت الأوامر إلى جنتيل بقطع إجازته
والعودة إلى منطقة نهر شارى لمعاونة السلطان جوارنج .

وأحر جنتيل من فرنسا في ١٥ فبراير ١٨٩٩ قاصداً برازافيل
قبل في الكونغو الفرنسية فبلغها في ٣٠ مارس ومن هناك بدأ

تقدمه نحو نهر شارى وكان الوقت هو موسم الأمطار التى بدأت تنساقط فى غزارة وجعلت نقل القوات والمهمات بوساطة البواخر النهرية عملاً محفوفاً بالمخاطر والمشقات . وهكذا اضطر جنّيل إلى التقدم ببطء حتى بلغ أعلى نهر جرينجى حيث وصلتته رسالة من الملازم بريتونييه الذى كان يعسكر بقواته فى بلدة « كونو » بشرح له فيها الحالة السياسية وكيف أن وصوله قد أنعش الأمل فى قلوب أهالى الباجورمى ثم يختمها بذكر ما يشاع من أن رابحاً قد بدأ يتحرك لمهاجمته فى كونو بالرغم من أنه هو نفسه لا يتوقع أن يجرؤ رابح على القيام بمجازفة كهذه . ١

كان من الواضح أن بريتونييه هذا ، وهو الحديث العهد بتلك المناطق ، لم يكن يعرف عن رابح وعن حقيقة قوته ما يعرفه جنّيل على الأقل الذى كان قد سبق له أن زار تلك المناطق وألم بأحوالها لذا فبالرغم من الاستخفاف البادى فى رسالته إلى جنّيل لم يتردد الأخير فى أن يسارع بإرسال ٢٠٠ شحنة من الذخيرة إليه مع ثلاث مدافع ليستطيع بها أن يواجه الموقف .

وبدأت الأنباء بعد ذلك تتوالى على جنّيل تنبئ بخطورة الحالة وباقترب هجوم رابح على قوات بريتونييه الذى لم يحرك مع ذلك ساكناً برغم خطورة مركزه الواضحة مما دل مرة أخرى على أنه يفتقر إلى المقدرة على تقدير الموقف تقديراً سليماً . ولقد

وضح هذا جليا مرة ثانية في رسائله التي بعثها إلى جنّيل والملازم جوليان^(١) تفيض بالاستخفاف برايح وقواته التي قدر استطاعته حصدها حصدا دون جهد أو مشقة ، ولعل من الضروري هنا أن نسوق إلى القارىء نص هذه الرسائل لما لها من الأهمية في القاء الضوء على المعركة التي دارت بعد ذلك والتي كانت كفيلة بأن تعلم بريتونييه درسا ينفعه طوال حياته لولا أنه فقد فيها هذه الحياة نفسها ثمناً لاستهتاره واستخفافه بالقائد الذي دوح القوات الفرنسية على نحو لم يفعله أى قائد آخر في أفريقيا .

كتب بريتونييه لجنّيل يقول : لقد بادرت بإبلاغك اننا قد نظمنا أربعة وأربعين من جنود الميليشيا وعشرين من الباكونجو المسلحين مع أربعائة من الباجورمين ببنادقهم . وبفضل باقى أسلحتنا داخل الحصن يمكننا أن نكبد العدو خسائر جسيمة . وإنى أعتمد أيضاً على الدفاع مع التقهر ، وسوف نهاجم باكرا ونحن فى موقع حصين للدفاع . وسواء انضم إلينا جوليان برجاله أو لم ينضم فإننا فى حالة تمكّنا من رد العدو على أعقابهم^(٢) .

كما كتب لجوليان نفسه يقول : « إن رايحا لا يملك بنادق

(١) ملازم فرنسى وقائد فصيلة من الجنود الفرنسيين كان عليها أن تتقدم لنجدة بريتونييه .

(٢) كتاب « سقوط امبراطورية رايح » — مؤلفه اميل جنّيل ص ١٢١

إلا من طراز ضغط الهواء وقليلًا من البارود والخرطوش المعاد
صنعه وبعضًا من القنابل الحديد فهو لا يقوى على الاحتمال ..
أما جنتيل فقد علق على هذه الرسائل بقوله : « وأأسفاه ..
لم كان كل هذا الاستخفاف بالعدو ! إن من الواضح أن بريتونييه
لم يستخبر جيداً عن رابح فان كل ما ذكر من الاستعلامات غير
حقيقي ولا يمكن الأخذ به .. » ثم مضى في تقديمه البطيء وقد
انقطعت عنه أنباء بريتونييه تماماً ..
فقد كان رابح قد بدأ هجومه ..

ما كاد رابح يدق أبواب كونو حتى انسحب بريتونييه منها
واحتل تلال تجباو الواقعة إلى الشرق من كونو وهي سلسلة من
التلال يبلغ ارتفاعها من مائة إلى مائة وخمسين متراً عن سطح
البحر وتقع في وسط منطقة تقيم بها قبائل من الباجورمين .
وفي السابع عشر من يوليو عام ١٨٩٩ استلم رابح القيادة
بنفسه وكانت قواته تألف من عشرة آلاف رجل مسلحين إلى
جوار سهامهم ورماحهم بنحو ألفين وسبعمائة بندقية ، ثم بدأ
الهجوم على قوات بريتونييه التي كانت قد اختارت مواقعها
الحصينة فوق تلال تجباو في مهارة وعناية ..
حمل رابح الحملة الأولى على القوات الفرنسية ولكنه لم يلبث



مقتل بريتونيه في موقعة تجباو في أغسطس ١٨٩٩

أن ارتد عنها بعد أن كبدها حياة أحد ضباطها ويدعى الملازم براون الذى سقط قتيلًا وأصاب بريتونييه نفسه إصابة خطيرة فى صدره اضطرته إلى أن يقود المعركة بعد ذلك وهو طريح فوق صندوق من الحديد ليشرح رجاله بالرغم من إصابته بوجوده بينهم .

وعاود رابع الهجوم مرة ثانية بعد أن جمع قوائمه من جديد وأمر الخيالة أن يترجلوا عن جيادهم التى كانت تعيقها الصخور عن التقدم ثم قذف بنصف جنوده فى المعركة وحمل على مواقع الفرنسيين حملة عنيفة زعزعت جناح القوات الباجورية التى تولاهما الذعر فولت الأدبار متخلفة عن مواقعها فوق قمم من قمم التلال الحصينة . فى تلك اللحظة تقرر مصير المعركة فقد سارع رابع إلى احتلال هذه المواقع وبدأ يصلى قوات بريتونييه التى أصبحت بذلك فريسة سهلة وابلا من النيران الحاصدة فأبىد السنغاليون عن آخرهم وأصيب بريتونييه نفسه برصاصة قاتلة وعندما تقدم طاور من الاحتياطى تحت قيادة ضابط فرنسى يدعى « دوران أوتيه » لتغيير مصير المعركة حوَّصر هو الآخر وأبىد رجاله جميعاً ..

لم يبق بعد هذه الموقعة التى غنم فيها رابع مدافع بريتونييه الثلاثة والتى عرفت فيما بعد باسم « مذبحة تجبار » ، أحد من القوات الفرنسية على قيد الحياة سوى ثلاثة من الجنود السنغاليين كانت

جراحهم الخطيرة قد حالت دون تمكنهم من الفرار فسقطوا في الأسر ثم استطاع واحد منهم فيما بعد أن يتمكن من الحرب وأن يحمل إلى جنّيل أنباء تلك الهزيمة الساحقة .

وكان طبيعياً أن يتلقى جنّيل هذه الأنباء في ألم ووجعة وأن ينشط بعدها إلى الإسراع في الانتقام من رابع حفظا لهيبته أمام الباجورمين على الأقل بعد أن أصابهم انتصار رابع باليأس ، وزعزع من عزائمهم حتى بدأ الكثيرون منهم يسارعون بالانضمام إلى رابع ومهادنته الشيء الذي كان يرى فيه جنّيل تهديداً بالغاً لموقفه في تلك المناطق .

أسرع جنّيل بعد ذلك في تقدمه حتى بلغ بلدة « فورت أرشمبولت » الواقعة على بعد مائة ميل إلى الجنوب من كونو حيث كان رابع لا يزال مقيماً بقواته ، وشرع على الفور في تحصين البلدة وتكديس الأمتعة والمهمات بها استعداداً للخطوة التالية وإن كان لم ينس مع ذلك أن السنوسي ربما ظن هذه التحصينات موجهة ضده هو استعداداً للهجوم عليه من ناحية ودّاي فيكون هذا ايذاناً بوقوع المتاعب بينه وبين السنوسي مرة ثانية . غير أن هذا الخطر المتوقع من ناحية السنوسي لم يلبث أن انقشع عند ما أرسل هذا الى جنّيل رسالة تعزية رقيقة لموت بريتونييه أكدت مرة جديدة ما بين الاثنين من مودة ووفاء .

كانت فورت أرشبولت كما قدمنا تقع على مبعدة مائة ميل من كونو وكان الطريق الموصل بينهما سهلاً معبداً وليس فيه من عائق يمنع تقدم طواير المشاة غير بحر صارا ومع ذلك فقد أخذ جنريل يتم استعداداته في عجلة ولطفة فلما فرغ من ذلك أصدر أوامره في الثالث عشر من أكتوبر ١٨٩٩ للكابتن روييللو Robillot بأن يتحرك فوراً نحو كونو لينتقم من رابع ويغسل عار الهزيمة عن سمعة فرنسا الحربية التي مرغت في التراب فوق تلال تجباو . .

* * *

في هذه الفترة جرت حادثة مقتل « فرديناند دي بهاجل » Ferdinand de Behagle في مدينة دكوة . . وكان بهاجل رجلاً نحيفاً متوسط القامة تظهر على ملامحه القوة والنشاط وكان يعمل مندوباً لإحدى المؤسسات التجارية في فرنسا تسمى « النقابة الفرنسية » في بعثة لإنشاء مراكز تجارية تابعة لها حول بحيرة تشاد وحوض نهر شاري .

وكان رابع في عدائه للفرنسيين لا يسمح أبداً لتلك العداوة الجارفة أن تعمية عن مقتضيات الانسانية وحقوقها : فهو يفرق بين الجنود الفرنسيين الذين يقاثلهم بكل سلاح دفاعاً عن وطنه ، وبين التجار الفرنسيين الذين يجوبون مملكته بقصد التجارة وحدها والمبادلة على محاصيل البلاد . فهو لا كانوا يلقون منه كل عناية وترحيب بالرغم من أنهم كانوا في الواقع طلائع

الاستعمار وجواسيسه يتجولون في أنحاء البلاد ، يجمعون المعلومات عن أحوال رابع وقواته لا بلاغها بعد ذلك إلى جنطيل . وكان من الواضح أن بيهاجل واحد من هؤلاء الجواسيس الذين يتسرون تحت ستار التجارة منذ أن التقى به جنطيل في أعلى نهر شارى ووضع تحت تصرفه باخرته « ليون بلوت » ، ليستعين بها في تنقلاته وفي التجسس لحسابه . وبالرغم من ذلك فإنه ما كاد يصل إلى دكوة ، بعد أن شجعه على زيارتها ما لقيه من معاملة طيبة من عثمان شيكو حاكم كاسورى ، حتى استقبله رابع بنفسه مقابلة ودية أكد خلالها دى بيهاجل لمضيفه بأنه يشتغل بالتجارة وحدها وأنه لم يحضر إلى تلك البلاد إلا لدراسة منتجاتها والمبادلة عليها .

ويروى الدكتور ديكورس ، وجود فرى دى مومبينس في كتابهما « رابع وعرب نهر شارى » ، صفحة ٢١ أن راجاً أمر في اليوم التالي لوصول دى بيهاجل إلى عاصمته ، وكان قد خصص له مسكناً فاخراً إلى جوار منزل أحد الرؤساء بالعاصمة وكان يدعى جبارة ، أمر ولديه فضل الله ومحمد نياني ومعهما الفقيه حامد الكبير والفقيه حامد الصغير بأن يحملوا إلى بيهاجل أربعة صناديق من ريش النعام وأنياب الفيل هدية منه إليه وأن يزودوه بما يلزم لتموين قافلته من الحبوب والدقيق والدجاج والبيض

والأرز والزبد والذبن والخراف وغير ذلك دون أن يتقاضوه شيئاً من ثمنها ..

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه بريتونيبة قد تقدم إلى كونو ليقتص من رابع لهجومه على السلطان جورانج وفي الوقت الذي كان فيه رابع يستعد للالتحام مع تلك الغوات المتقدمة بتجهيز جيشه وجمع السلاح له . وعلم رابع أن دى بيهاجل يمتلك عدداً من البنادق فرغب في شرائها ولكن بيهاجل رأى أن يستغل حاجة رابع إلى السلاح فرفع الثمن وغالى فيه غلوا فاحشاً فافترقا في ذلك اليوم وقد تسكرب بينهما الجو وإن كان هذا لم يمنع بيهاجل مما كان قد حصل عليه من التسهيلات والمزايا وبقيت له حرية التجول في مدينة دكوة وإن كان قد منع من مغادرتها دون الحصول على إذن بذلك ..

وعاد رابع مرة أخرى يفاوض بيهاجل للحصول على السلاح وكأنا أراد الأخير أن يعاود استغلال الموقف للحصول على معلومات عن قوة رابع وخططه فلم يلبث أن نقل الحديث عن صفقة البنادق والناحية التجارية إلى الحديث عن الناحية السياسية فكشف بذلك عن حقيقة نواياه خصوصاً عند ما سأل رابع قائلاً : « وما هي حدودك في منطقة الباجورمى ؟ » (١)

(١) كتاب حياة السلطان رابع — مؤلفه جاسون دى جاريك . صفحة ١٠٢

وكان هذا السؤال بالإضافة إلى تصلب بيهاجل في بيع البنادق لرابح كفيلا بأن يفتح عينى الأخير عن حقيقة الدور الذى يقوم به الجاسوس الفرنسى .. ولكنه أراد أن يد له الحبل ليشنق به نفسه كما يقولون فمضى يستدرجه فى الحديث وعندئذ لم يتورع بيهاجل عن نقد أعمال رابح ضد السلطان جورانج الذى تحميه فرنسا وانهاره بأن القوات الفرنسية سوف تجعله يندم تماما على مهاجمته لحليف لها . وكان رابح ، كما نعلم ، سريع الغضب فرأى فى هذا التدخل السياسى من رجل يعتبر مجرد تاجر لا شأن له بأمور السياسة خروجا عن مقتضيات موقف الحياد الذى يجب أن يقفه كما أن رفضه تقديم السلاح له فى تلك الفترة العصبية يعد انحيازا واضحا منه إلى معسكر مواطنيه من الفرنسيين ففض الجلسة بأن أمر بالقبض على بيهاجل ومعاملته كواحد من الأعداء ومصادرة تجارته من الأسلحة والذخائر فاستنكر دى بيهاجل هذا العمل أشد الاستنكار وأخذ يسب حراسه .

كل هذه الأمور جرت على نحو طبيعى لا غرابة فيه .. فليس غريبا بحال ما أن يصادر أى جيش سلاحا يحتاج إليه ، وليس غريبا ورايح يستعد لمعركة عنيفة مع الفرنسيين أن يلقى القبض على واحد منهم يحاول أن يعطل مشروعاته فى الدفاع عن بلاده . إنما الغريب حقا أن يعتبر مؤرخو الغرب هذا التصرف الذى تلجأ

إليه كافة الجيوش والدول المحاربة حتى يومنا هذا موزعا للمؤاخذه
ودليلا على قسوة رابح ووحشيته . !

غادر رابح بعد ذلك دكوة قاصدا كونو لقتال بريتونيه تاركا بيهاجل
في حراسة ابنه فضل الله . ولم يكف بيهاجل في أول أيامه في الأسر
عن الطعن في أعمال رابح والتعريض به أمام من حوله من الرجال
بل وتمادى أيضا في السباب ناعتا رابح ورجاله بأنهم « كلاب أولاد
كلاب وعبيد »^(١) ، مما أثار عليه الرجال فعلا وملاهم سخطا وغضبا
فما كاد رابح ينتصر على بريتونيه كما قدمنا ويفرغ من إبادة القوات
الفرنسية في تجباو حتى أرسل إلى فضل الله أمرا بإعدام بيهاجل
الذي كانت هزيمة مواطنيه قد خفقت من غلوائه فبدأ يحترم من
حوله احتراماً يخالطه الخوف والجبين .

وهكذا لقي بيهاجل مصرعه . .

إن هذه الحادثة ليست ذات دلالة خاصة فثلاثا يحدث مئات
المرات في كافة الحروب ونحن لم نذكرها هنا بذلك التفصيل كمحاولة
للدفاع عن موقف رابح فانه موقف طبيعي لا يحتاج فيما نرى إلى
أى دفاع وإنما لنهيء ذهن القارئ لتلك القسوة الحقيقية والهمجية
البربرية التي ارتكبتها القوات الفرنسية فيما بعد عند ما علقت رأس
رابح فوق حربة طويلة ومضت تمثل بجثته على صورة تنسافي
وأبسط ما تدعيه فرنسا لنفسها من شرف ومدنية . .

(١) « سقوط امبراطورية رابح » مؤلفه إميل جنريل صفحة ٢٥٣

معركة كوينو

« الزحف على كوينو - جيش رابع -
المعركة تبدأ - الهجوم بالسلاح الأبيض -
فداحة الخسائر بين المعسكرين - توقف
القتال - جنيتيل يصف المعركة - تقمقر
الفرقتين » .

ذكرنا في الفصل السابق أن جنيتيل أصدر أوامره في الثالث عشر من أكتوبر ١٨٩٩ بالزحف على كوينو لهدفين : أولهما الانتقام لضحايا معركة تجباو واستعادة هيبة الفرنسيين في تلك البقاع والثاني فتح الطريق إلى بحيرة تشاد التي اتفق على أن تكون مكانا لتلاقى جنيتيل مع الحملة المرسلّة عن طريق منطقة السودان الوسطى تحت قيادة الكابتن قوليه Voulet والأخرى القادمة من بلاد الجزائر تحت قيادة القومندان لامي حتى تستطيع الحملات الثلاث بتكاملها وتوحيد جهودها القضاء على رابع نهائياً .

رتب جنيتيل زحفه على كوينو بحيث تسير طواير المشاة بجوار نهر شاري حتى تتمكن من أن تعسكر مع القوات التي تحملها السفن النهرية في مكان واحد لتأمين هجوم العدو . ومع ذلك فقد اصطدم

جنتيل فى زحفه هذا بكثير من العقبات فان ماكان يخشاه من انضمام الباجورمين الى رابح قد حدث على صور متعددة أشعرته دائماً بأنه يسير فى منطقة معادية وبين أناس لا يرحبون به ، فقد أخذ المرشدون الذين كانوا من بين الباجورمين يهجرون معسكره للانضمام الى رابح كما كان الذين يقبلون الخدمة معه بدلاً من هؤلاء الهاربين لا يلبثون هم أيضاً أن يفروا منه حاملين أنباء قواته وتحركاته الى معسكر عدوه رابح .

وعلى هذا النحو الشاق مضى زحف جنتيل نحو كونو حتى أصبح على مبعدة نحو عشرين ميلاً من معسكر رابح أمام تلال تجباو حيث طالعه الهياكل العظمية ، والجاجم المتناثرة والصناديق الخشبية المشتمة وخراطيش الرصاص الفارغة وغير ذلك من بقايا المعركة المخيفة التى دارت فى ذلك المكان منذ شهور ثلاثة ، والذى كان على جنتيل مع ذلك أن يقضى به الليلة التى تسبق العاصفة .

فلما كان الصباح تقدم جنتيل بسفينته حتى أصبح على مرمى البصر من قوات رابح ثم بدأ تحت سمع تلك القوات وبصرها فى إنزال مدافعه الثلاثة إلى البر دون أن تتعرض هى له أو تحس بوجوده فقد ظن رابح عند ما رأى السفينة ترسو بمفردها بأن من عليها هم كل القوة الفرنسية ولم يتنبه إلى وجود القوات البرية الأخرى التى كان وصولها قد تأخر قليلاً لأنها سلكت طريقاً

آخر تملؤه الأعشاب غير الطريق المعتاد . وبهذا السكوت والصمت
أتاح راجح لعدوه وقتاً كافياً أعد فيه قواته واختار لمدافعه مواقع
ملائمة تماماً .

وكانت قوات راجح تتألف من وحدات متعددة كل واحدة
منها تسمى « البيرق » وعلى رأس كل بيرق رئيس يميزه ثوبه
الأبيض وعمامته البيضاء وحزام الجلد المعد للخرطوش الذى
يحيط ب صدره . أما القوات الفرنسية فقد كانت تتألف تحت قيادة
روبييللو من ثلاث فرق جعل الأولى فى المقدمة على شكل
مدرجات وتليها الثانية بينما تؤلف الثالثة الاحتياطى الذى يحمى
المؤخرة . وكان لراجح سفينتان الأولى تحت قيادة عثمان شيكو
حاكم مدينة كونو والآخرى عليها مدفع أعد لمجابهة نيران
الفرنسيين بينما احتفظ بالمدفعين الآخرين ليصد بهما زحف المشاة
وكانت هذه المدافع الثلاثة من بين غنائمه فى معركة تجباو
كما ذكرنا سابقاً .

وبدأت المعركة أولاً بتبادل قذائف المدفعية وطلقات
الرصاص بين المعسكرين اللذين كانت تفصلهما مسافة تبلغ حوالى
الخمسمائة متر . ولم تلبث فرقة الرماة فى جيش راجح أن تسلقت
الأشجار وبدأت تنصيد القوات الزاحفة بسهامها ورصاص بنادقها
بما كبده الفرنسيين خسائر جسيمة فى الوقت الذى كانت فيه فرقة

أخرى من الرماة قد تحصنت في خنادقها عند ميسرة الجيش وراحت تجيب بنيرانها على طلقات الرصاص التي كانت تنبعث من مؤخرة القوات الفرنسية وبهذا تمكن رابع من أن يحصر مقدمة العدو ومؤخرته بين وابل من نيران هؤلاء الرماة المدربين ممن يجيدون التصويب وإصابة الهدف من بعيد .

وبالرغم من أن مدافع الفرنسيين حاولت أن تجيب على هذا الحصار باطلاق قذائفها في عنف وشدة إلا أن ذلك لم يدم طويلا . فإن خطة رابع تلك كانت قد استطاعت في وقت قصير أن تهز صفوف الأعداء بالكثير من القتلى والجرحى بينما مضت مدفعيته هي الأخرى التي لم تكن مهارة رجالها في إصابة الهدف بأقل من مهارة إخوانهم الرماة نصلي معسكر الفرنسيين نارا حامية مما اضطر الكابتن رويللو في النهاية إلى إصدار الأوامر إلى مدفعيته بالكف عن الضرب لتتيح الفرصة للمشاة أن يتقدموا بالسونكي ليلتحموا برجال رابع المحصنين في الخنادق بعد أن أصبح مثل هذا الالتحام ضروريا لتجنب مزيد من الخسائر بفعل الرماة .

وكانت موجة الهجوم بالسلاح الأبيض شديدة الوطأة على قوات رابع التي اضطرت عندئذ إلى ترك خنادقها والنقهر نحو المدينة . وواصل الفرنسيون الهجوم على القوات المتقهقرة حتى بلغوا المساكن المصنوعة من القش فاشعلوا فيها النيران التي راحت



القوات الفرنسية تنساق فتيلة أمام أسوار كونو

تمتد في سرعة من بيت إلى بيت بينما أخذت الحيوانات من الخيول
والمواشي تفر مذعورة هنا وهناك مما زاد من هول المعركة وقد
اختلفت فيها رائحة البارود برائحة اللحم المشوي وأزيز الرصاص
وقصف المدافع بصياح السماء والأطفال ممن أحاطتهم النيران من
كل جانب ، وتصاعد في الجو مع إناث الجرحى والمصابين صهيل
الحيوانات المذعورة الخائفة .

ومضى القتال في عنف متزايد حتى بلغ منطقة من المدينة حيث
استطاعت قوات رابع أن تقيم سوراً من جذوع الأشجار تحصنت
خلفه ومضت نصب نيرانها على الأعداء يعاونها أحد المدافع الذي
اتخذ من سفينة جنتيل ذاتها هدفاً له .

وعند ما انتصف النهار كان بعض الرماة في جيش رابع قد
استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى قلعة في شمال المدينة نشرف على
مواقع الفرنسيين ومن هناك استأنفوا تصويب سهامهم ورصاص
بنداقهم على القوات المهاجمة بينما ظهرت في النهر بعض السفن الصغيرة
التي راحت هي الأخرى تتبادل النيران مع سفن جنتيل بالرغم من
أن المدافع المنصوبة فوقها استطاعت أن تحصد منهم عدداً وافراً وكان
من بين من سقطوا من القتلى عثمان شيكو نفسه .

لم يلبث القتال بعد ذلك أن فقد بعض حدته ريثما تتزود قوات
المعسكرين بذخيرة جديدة ثم استأنف مرة أخرى أشد ما يكون

عنفاً وإصراراً ، ودفع روييلو بالقوات الاحتياطية في المعركة بعد أن أصيبت الفرقتان الأولى والثانية بخسائر فادحة . وكان رابع ما زال محتفظاً بموقعه بوسط المدينة وحوله المئات من رجاله الذين قرروا ألا يتخلوا عن نصرته قائدهم إلا بعد أن تسفك آخر قطرة من دماهم .

وتقدم المارشال « بوسيل دي ديه Possel-Deydier » على رأس فرقته محاولاً الانقاض على هؤلاء الجبابرة فقتل . وحل محله الملازم جولاندواكن صفوفه لم تلبث أن تراجعت لتحتجى بمساكن القش الباقية فتقدم عندئذ الكابتن جوليان بفصيلته ولكنه لم يستطع هو الآخر بعد قتال عاصف استمر ثلاث ساعات أن يزحزح رابعاً عن موقفه وإن كان قد تمكن من منعه من الاتصال بباقي قواته أو انضمام أحد من رجاله إليه .

وعندما بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر كان القتال المرير الذي استغرق ثمانى ساعات طويلة قد هدد قوى الفريقين واستنزف كل مافي طاقة البشر من جهد . وكانت الخسائر في المعسكرين على السواء من القتلى والجرحى قد بلغت رقماً مخيفاً : فقد فقد رابع عدداً من خيرة قواته ورؤساء جيشه الذين كان يحبهم ويعتز بهم مثل عثمان شيكو والفق أحمد وبوباكر بينما خسر جننيل هو الآخر نخبة من أشجع ضباطه كما جرح قائده روييلو جرحاً بالغاً هذا

غير المئات من الجرحى الذين اكتظت بهم سفينته وما أصاب مدفعيته من خسارة بالغة في الرجال والعتاد حتى لقد تلف أكثر مدافعه وأصبحت غير صالحة للاستعمال بعد ذلك .

أمام هذه الخسائر الجسيمة كان لابد أن يتوقف القتال وأن تنتهى المعركة دون أن تؤدي إلى نتيجة حاسمة لصالح أى من الفريقين . ولقد كتب جنريل بعد ذلك يقول فى معرض التحدث عن تلك المعركة الرهيبة :

« . . . أما موقعة كونو فقد كانت من أفظع المعارك التى خضناها . ومازلت أذكر حتى اليوم عند ما جن الليل ولهب الحرائق ما زال يلتهم المساكن ويصبغ الأفق بلون الدم بينما خيم علينا سكون ثقيل لم يكن يقطعه بين الفينة والأخرى سوى أنين الجرحى ونحيب الأحياء وهم سيكون موتاهم .

« ولقد حاولنا ليلتها أن نتناول الطعام ولكن التعب كان أشد ألماً من الجوع وكان النعاس يغالبنا فى إصرار حتى غلبنا أحياء فنمنا نوماً عميقاً حتى اليوم الثانى واستيقظنا فى الصباح مبكرين ولم يكن فى حوزتنا غير مدفعين صالحين للاستعمال وذخيرة لا تكاد تكفى لأكثر من ستين خرطوشة لكل رجل . أما المؤونة فكانت قد أوشكت على النفاد ولم يعد لدينا منها ما يكفى لغير أربعة أيام فقط بينما تكدس الجرحى فى الباخرة

وأصبحت السفن الأخرى فى حاجة إلى إصلاح عاجل .
للكل هذه الأسباب قررت التقهقر والعودة إلى بلدة فورت
أرشمبولت التى بدأنا منها زحفنا . . . (١)

* * *

قرر جنٲيل اذن أن ٲتراجع عن كونو لٲضمء ما أصاب قواته
من جراح فى المعركة التى التهمت عدداً كبيراً من الضحايا دون أن
تؤدى إلى نتيجة حاسمة فى ذلك الصراع الذى بضطلع به ضد رابع .
وبالرغم من أن تلك الحقيقة كان ٲدل عاٲها فعلا انسحابه هذا
إلا أنه استطاع مع ذلك أن ٲخدع الباجورمٲين من أهالى تلك
البلاد وأن ٲظهر أمامهم ٲمظهر القوى المنتصر لٲرفع بذلك من
روحهم المعنوية وٲكسبهم فى صفه من جءىء . ولقد نجح فعلا فى
ذلك حتى لئرى هؤلاء أقل عءاء له فى تقهقره عن كونو منهم
أثناء تقدمه نحوها ، كما نرى أيضاً سلطانهم جوارنج الذى كان
لا ٲزال ٲسوقه الأمل فى أن ٲعيدة الفرنسيون إلى عرشه ٲعاودا لانسال
به عارضاً المزىء من صور صداقته له مقدما إليه ما ٲحتاجه من
المؤن والنسٲيلات . وكان هذا فى الواقع هو كل ما استطاع
جنٲيل أن ٲكسبه من معركة كونو وهو كسب استطاع أن ٲتعزى
به عن النصر الحاسم الذى كان ٲحلم بأن ٲحوزه ضد رابع . .

(١) كتاب سقوط امٲراطورية راج «لؤلفه إمٲل جنٲيل صفحة ١٦٣ - ١٦٤

أما رابع فإن موقفه لم يكن أقل سوءاً من موقف خصمه ..
كانت كونو قد استحوّلت إلى كومة من الخرائب والانقاض
ففقّدت بذلك أهميتها كقاعدة لقواته . كما كان هو في حاجة إلى
الارتداد نحو قواعد في الشمال حتى يستطيع أن يستعد للجولة
الثانية استعداداً يثلام مع قوة العدو الذي يناضله . لذا فإنه لم
تكد تمضي أيام قليلة على انسحاب جنّيل حتى شرع هو بدوره في
نقل جراحه عن طريق النهر والرجوع بحيشه إلى لوجون ودكوة
بالرغم من أن ذلك العمل قد ترك نهر شارى في الواقع تحت
سيطرة جنّيل تماماً كما أتاح للأخير فرصة التقدم بسهولة نحو بحيرة
تشاد حيث كان قد تقرر أن يلتقى بالحملات الأخرى التي بدأت
تتحرك وتتجمع لمواجهة رابع في معركة أخيرة ..

ثلاث حملات ضد رابع

« حملة جننيل - الحملة الافريقية - الحملة
انصراوية - كاسورى تسقط - جننيل
ينضم إلى حملة لامي - الحيافة تتحالف مع
أعداء رابع - الشيخ عمر . »

سبق أن قدمنا في الفصول السابقة كيف أن الحكومة الفرنسية
ما كادت تبلغها أنباء المعارك التي شنها رابع ضد حليفها سلطان
البا جورى ، وهى المعارك التي رأيناها تنتهى باحتلال رابع لعاصمة
تلك الولاية وتنمخض عن تأديب للقبائل التي تحالفت مع جننيل
أثناء رحلته الأولى فى تلك البلاد ، حتى فزعت من وجود تلك
القوة النامية وتحققت من خطرهما على مشروعاتها الاستعمارية
فى وسط أفريقيا وقررت القضاء عليها قضاء نهائيا فى حرب سافرة
قبل أن يزداد خطرهما أو تتشعب أطماع ذلك القائد فيعمل بعد أن
استتب له الأمر فى تلك الامبراطورية الواسعة التى تشمل عدداً
من الولايات الهامة الفنية على الوثوب على مستعمرات فرنسا
نفسها فى تلك المنطقة واخضاعها لنفوذه .

لهذا كانت حملة جننيل ، أو حملة نهر شارى كما عرفت بذلك

فيما بعد تمييزها عن باقي الحملات التي شاركت في القضاء على رابع ..
ولقد رأينا تلك الحملة تصطدم مع رابع في معركة تجباو وكونو
وهما من أعنف المعارك التي خاضها الاستعمار الفرنسي في أفريقيا ،
باستثناء معاركه في الجزائر وتونس ، والتي أيد فيها الكثير من
قواته دون أن يستطيع مع ذلك أن يحسم الأمر على صورة
واضحة . ولعل الحكومة الفرنسية كانت تظن أن القضاء على رابع
لن يعدو أن يكون نزهة حربية ممتعة يتسلى فيها جنّيتل بمدافعه
وبواخره النهرية باصطياد المواطنين البدائيين ، وأن هؤلاء لن
يكادوا يرون أقدام الاستعمار تطأ بلادهم حتى يخروا أمامها ساجدين
مرحبين . والواقع أن الخيانات التي ارتكبها كل من السنوسي
والسلطان جورانج وتحالفهم مع جواسيس الاستعمار ثم إرسالهم
مندوبين عنهم إلى فرنسا ، كل ذلك قد شجع ولا شك وزارة
المستعمرات في باريس على أن تظن أن القضاء على رابع في مثل
تلك الظروف لن يكلفها كثيراً ..

ولكنه كلفها كما رأينا .. ولم يكن المسؤولون في فرنسا في حاجة
بعد ذلك إلى وقت طويل ليدركوا أن حملة نهر شارى وحدها
لن تستطيع أن تخلصهم من رابع . بل إن هذه الحملة نفسها لو تركت
وحدها لتواجه عدوهم فإنها لن تلبث أن تبيد بعد معركة
أو ثلاث .

أمام تطور الأمور على ذلك النحو كان طبعياً أن تصدر
الأوامر إلى القوات الفرنسية بالسودان الوسطى بالتقدم صوب
بحيرة تشاد للانضمام إلى حملة جننيل ومعاونتها في مهمتها في الوقت
الذي كانت فيه حملة أخرى سميت فيما بعد باسم الحملة الصحراوية
تتقدم من بلاد الجزائر تحت قيادة ضابط فرنسي يدعى لامى
للمشاركة في نفس الغرض .

وهكذا اجتمعت ضد رابع حملات ثلاث . ١

* * *

والآن .. كيف التقت هذه القوات المتفرقة في بلدة كاسورى
حيث دارت بعد ذلك المعركة الفاصلة ؟ .

بدأت الحملة القادمة من السودان الوسطى ، والتي عرفت باسم
الحملة الأفريقية ، سيرها من بلدة « ساي » ، وقد أسندت قيادتها
إلى ضابط فرنسي يدعى « جوستاف قوليه » . غير أنها لم تكدر
تتقدم في زحفها قليلاً حتى بلغ السلطات الفرنسية أن جوستاف
قوليه هذا قد ارتكب أعمالاً فظيعة لا مبرر لها أثناء تقدمه
فصدرت الأوامر بعزله عن قيادة الحملة وتعيين « الكولونيل كلوب » ،
بدلاً منه . ولكن قوليه ما كاد يبلغه نبأ عزله حتى أقصى عن الحملة
سائر الضباط المناوئين له بأن أعادهم إلى بلدة « ساي » ثم تقدم على
رأس حملة البنادق لملاقاة القائد الجديد . ودارت بين الاثنين

معركة قصيرة انتهت بمقتل كلوب ولكن قوات قوليه لم تلبث بعد ذلك أن تمردت عليه وقتلته هو الآخر وانضمت إلى الملازم « باليه » الذى أعاد الأمور إلى نصابها وقضى على حركة التمرد والعصيان التى كادت تعطل مهمة الحملة الأساسية .

بعد ذلك تابعت الحملة زحفها من جديد تحت قيادة الملازم جولاند الذى أسرع فى اتجاه بحيرة تشاد حتى بلغ حدود مدينة « جولفى » قبل أن يحس بمقدمه أحد ومن هناك أرسل إلى جنيتيل فى قاعدته بفورت ارشمبولت أحد ضباطه ينبئه بوصوله . وكان جنيتيل فى ذلك الوقت قد استطاع أن يتفق مع السلطان جورانج على أن يحصل منه على الجمالين ودواب النقل اللازمة لحمل المثونة والذخائر فلما جاءته أنباء وصول « جولاند » وكان قد فرغ من تجميع الذخائر والأسلحة اللازمة لخطته بدأ سيره فى ١٣ مارس ١٩٠٠ من بلدة فورت ارشمبولت متجها نحو الشمال للإلتقاء به وبقوات لامي التى كانت قد بلغت عندئذ إقليم كانم شرقى بحيرة تشاد .

ولم يكن تقدم جنيتيل سهلا هذه المرة أيضا . . فقد تعاونت ضده عناصر الطبيعة العاضبة كما كان نقل المؤن والذخائر يجرى على صورة بطيئة ممّنة نتيجة لسوء حالة الجمالين الذين قدمهم جوارنج وضمف الدواب المستعملة فى هذا الغرض .

وبينما مضى جنيتيل يتقدم نحو الشمال على هذا النحو الشاق

كان لامي قد تابع تقدمه حتى التقى بالحملة الأفريقية بالقرب من جولفي حيث كان يقيم فضل الله وتحت امرته حوالى الألف رجل تبلغ عدة سلاحهم نحو ستمائة بندقية .

وحاول لامي أن يستولى على جولفي ولكن المناوشات الأولى التى دارت بينه وبين فضل الله لم تلبث أن كشفت له عن صعوبة ذلك الهدف . فقرر الزحف على كاسورى الواقعة إلى الجنوب منها واحتلالها حتى يستطيع بذلك أن يقطع خطوط مواصلات فضل الله بقاعدة الجيش فى دكوة ويضطره إلى إخلاء مدينة جولفي .

ولم تقاوم كاسورى مقاومة جدية .. ونجحت خطة لامي : فان فضل الله لم يلبث أن اكتشف خطورة مركزه بعد سقوط كاسورى التى تتحكم فى خطوط تموينه ومواصلاته فى يد الأعداء فشرع فى الإنسحاب من جولفي والالتجاء إلى لوجون جنوبى كاسورى . وفى طريق انسحابه عسكر بعض الوقت تجاه كاسورى وعلى مبعدة خمسة أميال منها بقصد التربص بدوريات الفرنسيين ومنعها من ارتياد ما حولها من المناطق أو جمع المعلومات عن رابع وقواته ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً كلف الأعداء كثيراً من الرجال والعتاد وأشعرهم بأنهم محاصرون فعلا فى ذلك الموقع الاستراتيجى الهام .

وكان رابع فى عاصمته دكوة عندما بلغته كل هذه الأحداث

المتلاحقة السريعة التي لم تفلح بالرغم من متابعتها على هذا النحو العاصف في أن تفاجئه أو تأخذه على حين غرة . فقد كان منذ أن جرت موقعة كونو يتوقع أن يعاود الفرنسيون الهجوم عليه ولذلك لم يكف من يومها لحظة واحدة عن الاستعداد للجولة الثانية بتجميع قواته وتنظيم صفوفها وجلب الأسلحة والذخائر لها . فما كاد يعلم بسقوط كاسوى حتى غادر بجيشه العاصمة واتجه لحصار لامى بها .

والواقع أن إسراع رابع لملاقة لامى كان عملاً بارعاً تماماً . فقد كانت خطة رابع أن يفرغ من لامى قبل أن تنضم اليه قوات جنريل . ولكن هذا العمل لم يلبث أن فقد أهميته عندما اقتصر رابع في حصاره لكاسورى على ناحية البر وعدم إسراعه باقتحامها بعد ذلك وبهذا أضعاف وقائهم وأتاح الفرصة لجنريل لأن يصل عن طريق النهر بامداداته وذخائره وخبرته إلى البلدة التي كان قد تكبدس بها رجال بلا عتاد أو مؤن أو أى معلومات عن عدوهم الذى يقاتلونه .

بلغ جنريل في تقدمه بلدة بوجومان، في ١٥ ابريل ١٩٠٠ فوجد في انتظاره الرسالة التالية من لامى يشرح له فيها الموقف في تلك الفترة الحاسمة :



فرسان رابع فتنهم مواقع الفرنسيين

« طلبت إلى أن أرسل اليكم قوة لملاقاتكم في بوجومان يوم ١٥ إبريل ١٩٠٠ ولكن لما كان ميدان كاسورى يعتبر في الحالة الراهنة في حالة حصار فانه من الممنوع ابتعاد الدوريات إلى مسافات تتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ متراً بعيداً عن الميدان خصوصاً بعد أن هوجمنا أمس وأول أمس . وموقع هذه المدينة من الطراز الأول من الوجهة الاستراتيجية ويجب أن نختارها قاعدة لعملياتنا لأنها تسيطر في الوقت نفسه على نهر شارى ومواقع لوجون وكرنك وجولفى ودكوة . وقد كان في الإمكان في ١٠ مارس الماضى الاستيلاء على بلدة لوجون إذا أردنا ولكن العائق الأكبر الذى منعنا من ذلك هو خوفى من تجزئة البعثتين التابعتين لى . ولقد بلغنى صباح اليوم من الانباء ما يفيد بأن مثل هذه المأمرية قد أضحت مستحيلة فى الوقت الراهن وان تكتل قواتنا واجتماعها فى جهة واحدة قد أصبح الآن من أزم الأمور فان راجعاً لما علم بقرب مجيئكم رأى أن يترك معسكره فى بلدة كالاموليه، Kala-Moulé وأن يستدير نحو كاسورى من الغرب بعد أن انضمت إليه قواته فى كرنك ولوجون ووجهته بعد ذلك من غير شك هى تطويقنا من الضفة الشمالية لنهر شارى : وإن المناوشات التى حدثت فى الأيام الثلاثة الماضية تحت أسوار بلدة كاسورى بيننا وبين

رابع كان الغرض منها هو إخراجنا من هذا الموقع وتربصنا للوقوع في كمين مما يؤيد كل استنتاجاتي بخصوص خطة رابع...^(١) كان هذا في الواقع هو بجمال الموقف في جهة كاسورى . وكان رابع عندما بعث لامي بتقريره هذا مشغولا بإقامة خط دفاعي في شمال غرب المنطقة لكي يقيم معسكره في أمان وإن كان هذا لم يمنعه من مناوشة القوات المحاصرة في كاسورى مرسلًا فرسانه لتصيد دورياتهم وتكبيدها الخسائر في الأرواح والمهمات مما جعل لامي يحس بأن الحالة التي يواجهها خطيرة جداً وأن أقل خطأ يرتكبه قد يجر عليه من النتائج والأحداث ما لا يعلم أحد مداه .

أسرع جنّيل عندما تسلم تقرير لامي وأطلع على حرج مركزه بالتقدم للحاق به من قبل أن يبدأ رابع هجومه . ولكن موقف جنّيل لم يكن هو الآخر خالياً من الخطورة فقد كان عليه لكي يبلغ كاسورى أن يمر ببلدة « موليه » المواجهة للوجون حيث يعسكر فضل الله بقواته وكان هذا قد عرف بتقديم جنّيل فأقام دوارية من الفرسان على النهر لرصد موعد وصوله .

ولكن الحظ ساعد جنّيل هذه المرة . . . فقد تصادف عند وصوله إلى تلك البلدة أن التقت دوارية فضل الله بجماعة من الباجورمين المعسكرين على الشاطئ الأيسر من النهر فانشغلت

(١) « سقوط امبراطورية رابع » - مؤلفه إميل جنّيل صفحة ٢٠٠

بمطاردتها وتشديتها وغفلت بذلك عن قوات جنزيل التي استطاعت
مستعينة بالظلام والأعشاب الكثيفة النامية على شاطئ النهر أن
تتقدم دون أن يلحظ تقدمها أحد من رجال فضل الله .

ولقد كان ذلك الخطأ الصغير الذي وقعت فيه داورية فضل
الله ، والذي مكن جنزيل من النسل في سهولة وبسر من أهم
الاحداث التي وقعت في تلك الفترة الهامة فقد استطاع بعدها جنزيل
أن يمضى في تقدمه دون أن يخشى شيئاً وأن يبلغ مدينة كاسورى
في سلام فينضم إلى قوات لامى بها وبذلك اجتمعت في تلك المدينة
الهامة الحملات الثلاث التي أقبلت من جهات عدة متفرقة بالرغم
من كل ما صادفها من عقبات .

ولعل خيانات السلطان جورانج وشبيهه الشيخ عمر سندا أكبر
أبناء السلطان هاشم حاكم بورنو السابق والذي كان يطمع في
استرداد مملكة أبيه من رابع . . هذه الخيانات هي التي لعبت الدور
الأول في إتمام ذلك الحدث الذي اعتبره جنزيل شيئاً لم يسبق
حصوله من قبل في تاريخ حركة الاستعمار في أواسط أفريقيا ،
وفي تسهيل تجمع تلك القوات الطائلة أكثر مما لعبه العزم والتصميم
من جانب القوات الفرنسية . والواقع أن راجحاً لم يقف ضد
الاستعمار الفرنسي فقط ولم يحارب مطامع الغزو الأجنبي فحسب
ولمّا حارب أيضاً ووقف ضد مطامع اثنين من السلاطين لم يكن

يهمهم من شئون بلادهم وهم تتعرض لمحنة الاستعمار الكبرى سوى أن تتاح لهم الفرصة للجلوس ثانيا على عروشهم مهما كلفتهم هذه الفرصة من ثمن . وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف لم يتردد واحد منهم في أن يضع نفسه ورجاله في خدمة الغزاة الأجانب وأن ينصر جيشا دخيلا على جيش رابع دون نظر إلى مصلحة الأهالي أو إلى مستقبل عرشه نفسه الذي كان انتصار القوات الفرنسية يعنى في الواقع ضياعه إلى الأبد . .

ولعل القارىء الذى تنبع معنا فى الصفحات السابقة المساعدات التى كان يبذلها السلطان عبدالرحمن جورانج لمساعدة جنتيلى وتزويده خلال زحفه الطويل بالمؤن والرجال، لعله أن يسأل: هل كانت عودة ذلك السلطان الضعيف الخائن الذى أحرق عاصمته يديه وشرده مواطنيه ومكن الأجانب من رقابهم إلى عرش الباجورمى ثانيا تعنى بالنسبة لسكان تلك المناطق حكما أصلاح وعدالة أكثر استقرارا من حكم رابع وعدالته ؟

لا مراء فى أن الاجابة على تساؤل كهذا بعد أن شهدنا من خيانات ذلك السلطان الشيء الكثير ان تكون عسيرة أو غامضة.. فان الحاكم الذى يستمد سلطانه من رماح الاستعمار ويسند عرشه على حراهم يحكم على نفسه بأن يكون خادما لساته الذين منحوه السلطان عدوا لأعدائهم حليفا لحلفائهم . . وهل عدو الاستعمار

سوى الشعب نفسه ، الشعب الذى تسلب أقواته ويصلب أبناؤه
وتقدم حياته قربانا للاستغلال والاستعباد . .

مثل هذا الحاكم الذى عرف الشرق من أمثاله الكثيرين
لا يمكن اذن أن يدخل فى حسابه مصلحة شعبه ورفاهيته . فاذا قام
رجل كرابح لا يستمد سلطانه إلا من إرادة شعبه ، ولا تحميه
إلا الرماح التى تهزها سواعد رجاله ، إذا قام رجل كهذا عرف
الشرق من أمثاله الكثيرين أيضا ليتصدى لمفاسد حاكم كهذا
وما تجره على البلاد من بلاء الاستعمار فان التاريخ خليق بأن يحفظ
له بالرغم مما قد يكون له من أخطاء أخرى مكانا ممتازا إلى جوار
الأبطال الذين خلدتهم كفاحهم من أجل حريات بلادهم وسلامتها..

ولعل من أوقع ما يختتم به حديث كهذا من قبل أن نقدم
للقرءاء فى الفصل القادم وصفا لنهاية رابع وانهيأر امبراطوريته أن
نقول إنه فى الليلة التى سبقت معركة كاسورى الفاصلة.. وفى الوقت
الذى كانت فيه الاستعدادات فى المعسكرين المتناحرين تقوم على قدم
وساق ، جلس السلطان جورانج بجسده الضخم وبثيابه الفاخرة
يتقاسم مع الشيخ عمر ، ذلك الرجل القصير القامة الذى يرتدى
دثارا بسيطا يتكون من جلباب وسروال من القماش الخفيف الصنع
ويضع فى قدميه نعلا خفيفا أصفر اللون وعلى رأسه طاقية بيضاء
قدرة ، تركة رابع وكل مهمما منها جموع النسوة التى سيخلفها رابع

من بعده والتي كان جورانج يحاول أن يستأثر بها مدخلا في روع
الشيخ أنه أقدر منه على إصلاح أمور النسوة وعلى القيام بواجباتهن.
ولم يكن من السهل طبعا أن يقتنع الشيخ عمر الذي قضى فترة
طويلة بعيدا عن الحكيم والسلطان مع زوجة واحدة تقدمت بها
السن بأن السلطان جورانج أقدر منه على التمتع بمزايا النساء فطالت
بينهما المناقشات والمفاوضات طوال الليل بينما انهمك جنريل ولا مى
على مقربة منهما يضعان خطة المعركة لليوم التالى وبينما كان رابع
فى المعسكر الآخر ساهرا بين رجائه يحثهم على الثبات ويذكرهم
بما وعد الله به عباده المجاهدين والأحرار من النصر والثواب ..

انهيار امبراطورية راج

« الاستعداد المعركة — تفوق راج — اصابة
لامى — خطوط راج — تداعى — موت لامي
رصاصة فى القلب — جنتيل يرى راج — جهود
فضل الله — انهيار امبراطورية راج »

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٢ إبريل ١٩٠٠ اجتمعت
قوات الحملات الثلاث الموضوعة تحت قيادة لامي خارج مدينة
كاسورى لمهاجمة معسكر راج . وكان راج قد فرغ فى الليلة السابقة
من تنظيم قواته على صورة مربع مدرج كشكل الهودج طول
كل ضلع من أضلاعه ثمانمائة متر تحيط به مساحة من الأرض
يبلغ ارتفاعها حوالى المتر تقريباً تقوم مقام الحصن لحماية مشاته
من رصاص الأعداء . أما لامي فكان قد قسم قواته إلى فرق
ثلاث : الأولى وتتكون من جنود البمثة الصحراوية وقد وكل
إليها مهمة الالتفاف حول جناح راج الأيسر ، والثانية وتتكون
من جنود الحملة الأفريقية ومهمتها مهاجمة الجناح الأيمن ، والثالثة
وتتألف من جنود حملة نهر شارى وهذه احتفظ بها تحت قيادة
رويللو لتسكون الاحتياطى الذى يلجأ إليه عندما تقتضى الحالة .



القومندان لای

هذا بالإضافة إلى قوات الباجورمين التي كان يبلغ عددها حوالى
الستمائة من حملة البنادق ومعهم مائتان من الفرسان والتي لم تشارك
فى المعركة أبداً إذ أبى أفرادها أن يطلقوا نيرانهم على رجال راج
الذين تجمعهم وإياهم صلة الجنس بالرغم من أن لامي كان قد وكل
إليها القيام بالهجوم المواجه على حصن راج ليتركها تتحمل
عنف الصدمة الأولى .

تحركت قوات لامي حتى أصبحت على مبعدة ميل من معسكر
راج . وهناك التقت ببعض رجال راج ممن كانوا يقطعون الحشائش
الخضراء لتغذية خيولهم فاطلق عليهم رجال الفرقة الأفريقية
النار فسارعوا عندئذ بالارتداد نحو أسوارهم وكان هذا إيذاناً
ببدء المعركة .

أجاب راج على هجوم الفرقة الأفريقية بإطلاق النار على طول
الخط فضاعت الفرقة بمجودها وتقدمت نحو خطوط راج
فى بطء حتى بلغت الأرض المكشوفة الواقعة أمام حصنه
فوقعت بذلك فريسة سهلة لرصاص رجاله الذين أوقعوا
بها خسارة فادحة اضطرت لامي فى ذلك الوقت المبكر ،
وبعد أن رفض الباجورميون المشاركة فى القتال ، إلى الاستعانة
بالاحتياضى الذى صدرت إليه الأوامر بالتقدم لأيدى هجوم
الفرقة الإفريقية .



القومندان لائی وقد أصیب بجرح ممیت فی ۱۰-۱۰-۱۹۱۷ء

وبالرغم من أن مدفعية الفريقين كانت قد بدأت في ذلك
الحين تقذف حممها إلا أن الموقف مع ذلك لم يتغير كثيراً فقد
صمدت قوات راج في خطوطها واستطاعت أن تحطم الموجة
الأولى من هجوم الفرنسيين وأن ترد القوات المتقدمة على أعقابها .
ساد جو المعركة بعد هذا هدوء نسبي واقتصر نشاط المدفعية
على بعض الطلقات بين حين وآخر فلما كان وقت الظهر عاود
الفرنسيون الهجوم وحمل لواءه هذه المرة جنود حملة نهر شارى
الذين استطاعوا أن يفتحوا ثغرة في خطوط راج تدفقوا خلالها
إلى داخل الأسوار واشتبكوا مع المدافعين في مذبح مروعة
بالسلاح الأبيض لم ينبج منها حتى الأطفال والنساء . واضطر
راج تحت وطأة هذا الهجوم إلى الانسحاب بقواته خارج الحصن .
الذى لم يلبث أن دخله الفرنسيون وعلى رأسهم قائدهم لامي وقد
ظنوا أنهم فرغوا من عدوهم وكسبوا المعركة نهائياً بذلك القدر
من الخسائر .

ولكن راج لم يكن بالذى يخضع لهزيمة كتلك فأعاد تنظيم
قواته من جديد وكر على الحصن محاولاً انتزاعه من يد الأعداء .
ودارت معركة أقسى من الأولى وسقط لامي وقد أصابته رصاصة
في صدره ، وبذل راج من العناد والرغبة في الثأر أقصى ما يستطيع
ومن حوله رجاله البواسل وقد أقسموا على أن يدفعوا آخر نسمة

من حياتهم فداء لقائدهم الذى قادهم من قبل إلى النصر فى معارك عديدة مظفرة ، ولكن كل ذلك الجهد لم يمنع النهاية المحتومة من أن تطل برأسها الأسود فوق مصير راج ورجاله المخلصين .

كانت القوات الفرنسية بوجودها داخل الحصن تتمتع بمرکز ممتاز فى الوقت الذى كانت فيه المعركة الأولى قد استنزفت قوى راج وكبدته خسائر فادحة فى القوات والعتاد . وبالرغم من أنه استطاع فى هجومه الثانى أن يوقع بالفرنسيين خسائر جسيمة كان على رأسها إصابة قائدهم بذلك الجرح المميت إلا أن جهوده قاربت نهايتها أخيراً عند ما أصيب هو الآخر بأكثر من جرح خطير لم يقو بعدها على مواصلة القتال فانطرح على الأرض بين جثث القتلى والجرحى من رجاله .

وفى الوقت الذى رقد فيه الكولونيل لامى بجرحه المميت فى خيمة راج يعانى سكرات الموت فوق فراش عدوه ، كان جنود الفرقة الأفريقية قد مضوا يواصلون القتال خارج الأسوار مع قوات راج التى كان نظامها قد بدأ يختل تماماً ويطلقون النيران على منبقى حياً من الجرحى .. وأطلق أحد الجنود الأفريقيين رصاصة على أحد هؤلاء الجرحى .. واستقرت الرصاصة فى موضع القلب تماماً فانكفاً الجريح فوق التراب وقد فارقت الحياة .

وعند ما اقرب الجندي من ضحيته وأدار الوجه الميت
ليبدأ عملية سلبه إذ به يرى نفسه وجهاً لوجه مع رابع وقد
أغمضت عيناه إلى الأبد والجرح الذي أصابه قد راح يقطر دماً ،
ووجهه الأسمر الشاحب بتقاطيعه القوية الممبرة قد غطاه التراب
وان لم يستطع الموت على قوته أن يفقدها ما أنصفت به أثناء
حياة صاحبها من تعاير الشجاعة والجسارة والإقدام .

* * *

انتشر خبر مقتل رابع سريعاً .. وسرى سريان النار في
الهشيم حتى بلغ في لحظات قلائل مسامع جنديين وهو جالس تحت
أقدام لامي الذي كانت الحياة قد فارقتة هو الآخر ، فلم يصدقه
لأول وهله إذ طالما سمع هذا الخبر مئات المرات قبل ذلك
فكان في كل مرة لا يعدو أن يكون إشاعة كاذبة تطلقها السنة
خصومه الذين كان يلذ لهم أن يتخيلوه ميتاً بعد أن يعجزوا في
دنيا الواقع عن تحقيق تلك الأمنية الغالية بأيديهم ..

ولكن أنباء مقتل رابع هذه المرة كانت تبدو أقوى من أن
تكون مجرد إشاعة ، فأرسل في طلب جثته للتحقق منها ، ولم
تكدر تمضي بعد ذلك عشر دقائق حتى وضعوا عند أقدامه رأساً
مقطوعة تنزف دماً واستطاع أكثر من رجل وعلى رأسهم خادم
رابع نفسه التحقق من أنها هي رأس ذلك البطل الكبير .



رأس رايح .. ووحشية الاستعمار

ولم يستطع جنطيل أن يمنع نفسه من أن تهتز في انفعال
عنيف أمام تلك الرأس الملقاة عند أقدامه وقد عاشت بها عقلية
حرية سامية كان لا بد للتغلب عليها من أن يجتمع الآلاف من
الرجال من كل ناحية فلا يستطيعون مع ذلك أن ينالوا منها قبل
أن يكبدهم ذلك الهدف افطع الخسائر وأفدحها ..

هذه العبقرية هي التي دفعت جنطيل عدوها الأول إلى أن ينحني
إعجاباً وخشوعاً أمام الرأس التي عفرها التراب وأن يكتب
في مذكراته يقول :

« إن هذا الرجل الذي تقطر رأسه دما تحت قدمي هو الشجاع
الذي كان يجب على الأقدم أن نحفظ له حياته . ولقد كنت أود
لو سقط حيا بين أيدينا لندخره من الموت ولكنها إرادة القدر ..
إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في هذا البطل الذي
دامت فتوحاته وانتصاراته طويلا وهو يقود الآلاف الرجال
الذين ملأوا أواسط أفريقيا متحدئين بفتوحاته وجرأته وشجاعته... » (١)

ويبدو أن جنطيل قد أحس بالوحشية والخسة التي صاحبت
قطع رأس راج بعد موته والتمثيل بجثته فأراد أن يرد عن نفسه
ذلك العار بقوله إنه كان يود لو استطاع أن يحفظ لراج حياته

(١) « سقوط امبراطورية راج » مؤلفه اميل جنطيل صفحة ٢٢٠

لولا أنها إرادة القدر . فإذا كان قد استطاع أن يتمسح في القدر
ليجد لنفسه مخرجا من تهمة قطع الرأس في حد ذاتها فإنه لن
يستطيع أن يهرب من عار أقوى وأبشع عندما سمح بعد ذلك
بأن ترفع الرأس وهي تقطر دما فوق حربة طويلة وأن يطوف
بها أحد الجنود السنغاليين ليعلن بذلك عن فروسية فرنسا وشرفها
في معاملة الرجال الذين يذودون عن شرف أوطانهم وحرّياتها ..

إن فرنسا التي لم يعرف حكامها عام ١٩٠٠ في قتالهم ضد
راج معنى لكلمة الشرف هي نفس فرنسا التي يحفظ لها التاريخ
حتى اليوم إنها قد رفعت فوق الرماح في كل مكان وطأته أقدامها
في أفريقيا آلافا من رؤوس الأحرار كراس راج تقطر دما ،
وتشهد عليهم وتنادى بالثأر في يوم قريب . .

* * *

بلغ مقتل راج ابنه فضل الله الذي كان مقيما في لوجون حيث
انضمت إليه فلول جيش راج التي بقيت على قيد الحياة بعد معركة
كاسورى فأثر عندئذ الانسحاب من تلك البلدة والاتجاه إلى دكوة
للانضمام إلى أخيه « محمد نيابي » الذي كان لا يزال يعاني من أثر
الجرح الذي أصيب به في معركة تجباو .

وزحف الفرنسيون على لوجون لاحتلالها ثم بدأوا بعد ذلك

في الزحف على دكوة فاستسلمت لهم بغير قتال بعد أن كان
فضل الله قد أخلاها هي الأخرى منذ أن علم بزحف
الفرنسين عليها .

واقترحت القوات الفرنسية سراي راج بدكوة للإقامة بها
واتخاذها مقراً لقيادتها . . ولكن أحد الفدائيين من رجال فضل
الله استطاع أن يتسلل مستتراً تحت جناح الظلام إلى الدهليز الذي
كان راج يحتفظ فيه بأسلحته وذخائره وأشعل فيه النيران فانهجر



فناء سراي راج بعد نسفه بيد رجال راج

ما يحتويه من بارود في دوى شديد ولم تلبث النيران أن امتدت إلى كافة أرجاء السراى فقضت على اثنين من ضباط المدفعية الفرنسيين وعلى عدد كبير من البنادق ومهمات المدفعية ثم مضت تلتهم النفائس والرياش حتى أتت عليها جميعا بالرغم من الجهود التي بذلها الفرنسيون والتي لم تفلح في غير انقاذ بعض من الذخيرة التي كان امتداد النار اليها كفيلا بنسف مدينة دكوة بأسرها . أما القصر نفسه فقد تحول إلى حطام وأنقاض كانت هي كل ما بقي من ذلك البناء الشامخ الذي أدار منه راج شئون امبراطوريته الواسعة الغنية التي كانت قد بدأت هي الأخرى تنهار وتهاوى إلى أكوام من أنقاض وذكريات .

تابعت القوات الفرنسية بعد ذلك مطاردة فضل الله فالتقت به في بلدة تدعى ديجامبا Deguemba فدحرته ولكنه استطاع مع ذلك الانسحاب بمن بقي معه من الرجال متجها نحو الجنوب فتعقبه الفرنسيون حتى عاودوا الاتصال به في بلدة إيسجي Isgué ، على حدود مندارا، حيث دارت رحى معركة نانية لم تنته هذه المرة إلى نتيجة حاسمة وإن كانت قد أسفرت عن وقوع الكثيرين من معسكر فضل الله في الأسر ومن بينهم زوجته خديجة بنت السنوسي ونيارزا ، خلية كرامبل التي كانت تعيش منذ أن قتل عشيقها في كنف راج ومن بعده ابنه فضل الله .

لم تو من هذه الهزائم المتكررة المتلاحقة من عزيمة فضل الله
الذى ورث عن أبيه حب الكفاح وصلابة العزيمة فأنحدر نحو
الجنوب وأقام في بلدة تسمى بـرجامة، وراح يحشد الجنود ويحرض
الاهالى على القيام لأخذ الثأر وتطهير بلادهم من أعدائهم الفرنسيين .
ولاقت دعوته نجاحاً كبيراً حتى اجتمع حوله من جديد جيش
من نحو الفين من الرجال . وكانت الأمور في بورنو في ذلك
الحين قد بدأت تضطرب من جديد بعد أن اختلف الشيخ
عمر الذى كان الفرنسيون قد ولوه على بورنو بعد سقوط دكوة
مع ساداته المحتلين فعزلوه وولوا مكانه أخاه غرباوى بما أطمع
فضل الله فى أن يغزو بورنو ويعيد سيرة أمبراطورية أبيه
من جديد .

وفعلا هاجم فضل الله غرباوى هذا ودارت بينهما معركة
بالقرب من بلدة ناجالا انتهت بهزيمة غرباوى وفراره إلى كانم^(١)
وأحيا هذا الانتصار آمالا واسعة فى صدر فضل الله ، ورفع
كثيراً من روح رجاله المعنوية فعول بعده على مهاجمة الفرنسيين
أنفسهم وأرسل إلى روييللو الذى كان قد تولى الادارة الحكومية
بعد عودة جننيل إلى فرنسا يطالبه بإسلا ب أبيه . ولم تكن القوات
الفرنسية بعد أن أنهكتها كل تلك الحروب راغبة فى أن تبدأ حرباً

(١) حاضر العالم الاسلامى - تأليف الأميرشكيب أرسلان ص ٣٢٥ - ٣٢٧

جديدة مع فضل الله فأرسل اليه روييلو يفاوضه في عقد معاهدة بينهما يمنح فضل الله بمقتضاها حكم مقاطعة بورنو في مقابل أن يعترف بالحماية الفرنسية عليها^(١).

ولكن فضل الله أبي أن يتحالف مع أعدائه وأعداء أبيه أو أن يعطى الاحتلال الذي مات أبوه وهو يقاتله صكا بشرعية وجوده في تلك البلاد فيتساوى بذلك في الخيانة مع السلطان جوارنج فرفض هذا العرض وهاجم بلدتي مكارى وجولفي واحتلها من جديد وبدأ يحرض قبائل البورنويين الذين عاشوا تحت حكم أبيه فساعدوا بما لم يساعدوا به تحت حكم من جاءوا بعده فرحبوا لذلك بالإنضمام إليه حتى قويت شوكرته وبدأ أنه يوشك فعلا أن يعيد سيرة أبيه العظيم وأن ينتقم لمقتله الممين الذي تم عند أسوار كاسورى .

وكان غرباوى في ذلك الوقت قد عاد إلى دكوة فهاجمه بها فضل الله وهزمه هزيمة ساحقة واستعاد بذلك العاصمة التي شهدت عهداً ذهبياً مجيداً تحت حكم رابح حتى نمت وازدهرت كسوق للتجارة ووضحت كما قدمنا المدينة الأولى في وسط أفريقيا والتي كان فضل الله يأمل أن يعيد إليها المجد من جديد . . .

ولكن انتصارات فضل الله هذه كانت أشبه الأشياء بانتفاضة الشعلة وتوجهها قبل أن يخمد ضروها وتخبو أنفاسها إلى

(١) سقوط امبراطورية رابح — تأليف أميل جنزيل صفحة ٢٦٤

الابد .. فقد أفلقت هذه الانتصارات السلطات الفرنسية إلى حد بعيد وخشيت أن يعيد فضل الله سيردأبيه وأن يجمع حوله الساخطين على الاستعمار الفرنسي الذي كان قد بدأ يسفر عن حقيقة وبصطدم بالآهالى وبنفوذ رؤساء القبائل فاستدعت روييلو لفشله فى كسر شوكة فضل الله وعينت بدلا منه قائداً جديداً يدعى الكولونيل ديستيناف Destenave وكلت اليه مهمة القضاء على ذلك العدو الجديد .

وآذنت شمس الكفاح الوطنى فى تلك البقعة من افريقيا على الغروب فان ديستيناف لم يلبث أن وجه ضد فضل الله حملة كبيرة التقت به فى معركة بالقرب من دلتا نهر شارى واستطاعت أن توقع به الهزيمة الفاصلة ، وبعد أن سقط صريعاً كما سقط رابع من قبل وتبدد جيشه فطويت بذلك نهائيا صفحة عاطرة من صفحات الوطنية التى كتبها بدمه ودم أولاده رجل نزع من جنوب السودان فكانت عبقرية صنوا لطموحه وكان عداؤه للاستعمار لا يقل عن حبه لتلك البلاد التى أحبها واتخذ منها وطناً ثانياً رواه بدمه فى سخاء بعد أن وقف حياته على رقيه والعمل على النهوض به .

لقد أفل نجم امبراطورية راج .. ولكن سيرة راج لم تأفل بعد ولن يستطيع النسيان أن يمحوها من قلوب الأحرار فان امثال راج كما يقول عنهم كارليل مؤرخ الأبطال ورجال تتحدى ذكراهم الزمن ويقف بين أعمالهم العظيمة الخالدة وناموس النسيان ستار كالفولاذ من محبة الأحرار فى كل عصر وجيل .. .

الاستعمار الفرنسي في غرب وشمال افريقيا

في يوم من أيام عام ١٦٣٧ كان هناك شاب فرنسي يدعى «كلود جانكين دي روشفورت»، يذرع ارصافة ميناء «دييب» بفرنسا وقد ساوره الهام غامض بأنه سيكون واحداً من كبار المستكشفين . ولقد حدث أن سأل عن وجهة سفينة معينة فلما قيل له إنها في طريقها إلى نهر سيناجا بافريقيا قرب رأس فيرد أصر على الالتحاق بها فلم تكدر تمضي بضع ساعات حتى كان قد قيد اسمه في سجل السفينة كجندى .

ويبدو أن تلك السفينة لم تكن تحمل على ظهرها جنوداً فحسب وإنما رهباناً أيضاً وكانت قد أعدت بناء على أوامر سلطات بعيدة النظر وكان خط السير المرسوم لها قبل أن يلتحق بها «روشفورت»، أن تصل إلى شواطئ أفريقيا الغربية لترسو شمال نهر السنغال حيث يقوم رجالها بقطع الأخشاب وبناء قارب صغير يستخدم لاستكشاف منطقة السنغال . وكانت هذه الخطة قد وضعت بناء على جهل بحقيقة هامة : وهو أن الساحل الأفريقي إلى الشمال من السنغال وإلى الجنوب من مراکش لا يحتوى على أية أشجار تصلح لبناء القوارب .

وعندما اكتشفت هذه الحقيقة عمدت تلك البعثة القادمة من « ديب » تحت قيادة الكابتن « لامبرت » والتي كانت تضم بين رجالها روشفورت إلى التوجه إلى السنغال وبناء سفينة صغيرة من الأخشاب التي أحضرها معها من فرنسا . وإلى هذا القارب نقل بعض البحارة ومن بينهم « روشفورت » الذي كان يقوم بعمل السكرتير لقائد السفينة ومضوا فارتادوا حوالى ١١٠ ميلا من نهر السنغال ابتداء من مصبه .

ولقد عادت بعد ذلك بعثة لامبرت إلى فرنسا بعد أن حصلت على امتيازات عديدة من الأهالى هناك ، ولم يلبث روشفورت بعد ستة سنوات من عودته أن نشر عن هذه المغامرة كتاباً حوى الكثير من التفاصيل الغربية الممتعة .

ولمدة طويلة لم يتبع بعثة لامبرت أية بعثة أخرى إلى أن باعت شركة « نورمانديا » حقوقها في منطقة السنغال إلى شركة « غرب الهند الفرنسية » التي نقلتها بدورها بعد ذلك إلى مؤسسة فرعية تسمى « شركة الشمال الملكية » التي عمدت إلى إرسال واحد من أقدر رجالها يدعى « أندريه دى برو » ليشراف على أعمالها هناك فجعل من قلعة سانت لويس التي أقامتها بعثة دى روشفورت مقراً لقيادته .

وكان دى برو يجمع إلى مواهب العلماء دهاء التاجر البعيد

النظر حتى ليمكن في الواقع اعتباره أول من وضع الأساس الحقيقي للإمبراطورية الفرنسية في غرب أفريقيا . . . ولقد قام ، خلال مدة إقامته هناك على شواطئ نهر السنغال التي امتدت إلى ثمانية عشر عاما ، برحلتين هامتين صاعدا خلال نهر السنغال ومتوغلا في الداخل كما زار جامبيا في عام ١٧٠٠ حيث التقى هناك عند مصب النهر بأحد الانجليز ممن يشتغلون بتجارة الرقيق يساعده معاونون من الهولانديين والبرتغاليين .

ولم يقتصر نشاط دي برو عند هذا الحد فقد عمد في أوائل القرن الثامن عشر إلى إرسال بعثة من عملائه لتوسيع رقعة النفوذ الفرنسي ولمد نفوذ شركته على طول نهر السنغال وفي اتجاه مقاطعة بامبوك العامرة بمناجم الذهب والتي تكون المنطقة الجبلية لأعلى نهر السنغال .

وعاد دي برو في النهاية إلى فرنسا عام ١٧١٥ ليعيش حياة رخية طويلة على الثروة الضخمة التي كان قد جمعها بعد أن نجح في أن يخلد اسمه كواحد من مؤسسي الامبراطورية الفرنسية في أفريقيا ، وفي أن يترك وراءه في تلك البلاد رجالا مثله في الدهاء والمهارة ليتموا العمل الذي بدأه هو . . . ومن بين هؤلاء نذكر كومبانيون ، الذي كان استاذاً في المخازلة والخداع والذي تمكن بمواهبه تلك من أن يجتذب قلوب المواطنين البسيطة

الساذجة مما ساعده على بسط نفوذه على « بامبوك » ، التي كان
الاهالى هناك يصدون عنها كل غريب صيانة لأسرارها كموطن
لاستخراج الذهب .

واستمر الفرنسيون فى توسيع رقعة منشأتهم فى السنغال
حتى عام ١٧٥٨ عند ما استولى عليها البريطانيون الذين حافظوا عليها
حتى عام ١٧٧٨ إلى أن استردها منهم الفرنسيون بمقتضى اتفاقية
للسلام عقدت بين الدولتين . ولكن انجلترا كعادتها دائما فى نقض
المعاهدات عادت فخرقت تلك الاتفاقية وعادت الاستيلاء
على المستعمرة عام ١٧٩٠ إلى أن تمكن الفرنسيون مرة أخرى
من استرجاعها منهم حوالى عام ١٨٠٠ .

وخلال الحرب النابوليونية احتل الانجليز من جديد ممتلكات
الفرنسيين فى السنغال فلما انتهت هذه الحروب بهزيمة نابليون
عام ١٨١٥ كانت السنغال من بين المستعمرات التى سمحت الدول
الأوروبية بعودتها إلى فرنسا . وعاود الفرنسيون من جديد
محاولاتهم لتوسيع دائرة استعمارهم وارتداد منطقة سينجامبيا
وما حولها من المقاطعات الغنية ، فما كادوا يفرغون نهائيا
من احتلال حوض السنغال عام ١٨١٧ حتى بدأت هذه المحاولات
تأخذ شكلا منظما .

ففى عام ١٨١٨ اكتشف « موليان » ، منابع نهر جامبيا بينما
اكتشف « دى بوفورت » ، منطقة كارتا . وفى عام ١٨٢٧ بدأ

« رينيه كاييه، رحلته في نهر نونيتز بعد أن تلقى العون من مستعمرة سيراليون (وهو الجنيل الذي لم يحفظه لتلك المستعمرة بعد ذلك) واستمر في سيره في نهر النيجر حتى بلغ « تمبكتو ، ومن بعدها عبر الصحراء إلى مراکش . والواقع أن تلك الرحلة الطويلة لم تفد كثيراً في توطيد أقدام الاستعمار الفرنسي في تلك البقاع في ذلك العهد لأن قائدا من أهل تلك البلاد يدعى « الحاج عمر ، كان قد بدأ ظهوره عندئذ ولم تؤد فتوحاته إلى إقفال الطريق إلى النيجر فحسب وإنما نجحت أيضاً في تهديد الاحتلال الفرنسي لمقاطعة السنغال نفسها .

بعد ذلك فقدت مستعمرة السنغال اهتمام فرنساها لفترة طويلة امتدت حتى عام ١٨٥٤ عندما نفي إليها الجنرال « فيد هرب ، الذي كان ، ولأسباب سياسية ، لا يتمتع بثقة الامبراطورية الفرنسية الثانية الحديثة العهد فرأت هذه التخلص منه بنفيه إلى تلك البلاد تحت ستار تعيينه حاكماً لها . وكان هذا الجنرال رجلاً ذا ذكاء بعيد وأطماع واسعة فبدأ منذ اليوم الأول من وصوله إلى تلك المنطقة يبحث جدياً امكانيات توسيع رقعة المستعمرة التي عين حاكماً لها .

وبدأ فيد هرب أولاً بمعاينة قبائل الموريش التي تقطن شمالي النهر والتي كانت قد دأبت على مهاجمة المنطقة بين الفينة والفينة ،

كما أخضع منطقة « وولى » وعمد إلى بناء قلعة « مدينا » لوقف تقدم الحاج عمر الذى منى فى هجومه على القلعة بخسائر فادحة اضطرته إلى الارتداد عنها بقواته التى كانت تبلغ نحو عشرين الفا من الرجال ..

واستطاع فید هرب بعد هزيمة الحاج عمر أن يحتل بعض الاقاليم فى حوض السنغال الأعلى وحول منطقة جامبيا ولم يمض عام واحد حتى كان قد أتم احتلال المنطقة الواقعة بين سانت لويس ومصب نهر جامبيا وفى حوالى عام ١٨٦٠ أضاف إلى الممتلكات الفرنسية الشاطئ الواقع بين غينيا البرتغالية ومقاطعة سيراليون وأطلق عليه اسم الريفيرا الجنوبية .

وجاءت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا وأدت إلى توقف العمليات الفرنسية فى تلك الجهات والتى لم تستأنف قبل عام ١٨٨٠ عندما شرع كابتن جالينى Gallieni فى إقامة خط حديدى يربط بين نهر السنغال الصالح للملاحة بمنطقة النيجر العليا التى كان قد بلغها فى ذلك العام عند بلدة باماكو . ولكن جالينى لم يلبث أن اضطر إلى الارتداد أمام هجوم الملك أحمدو ابن الحاج عمر وخليفته الذى شن عليه هجوما موفقا والذى كان سلطانه يمتد إلى المنطقة الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر .

ولقد بقى الملك أحمدو وشوكة فى جانب القوات الفرنسية وستاراً

منيعاً ضد تقدمها في بلاد النيجر إلى أن تمكنت حملة فرنسية بقيادة الكولونيل ديسبورد من احتلال عاصمته كيتا وإرغامه على توقيع معاهدة وضعت منطقته بمقتضاها تحت الحكم الفرنسي . وحوالي عام ١٨٨٣ كان الفرنسيون قد أنموا احتلال باماكو وتحصينها وبدأوا يخوضون صراعاً طويلاً ضد ساموري وهو ملك زنجي استطاع أن يرتفع من نشأة متواضعة إلى مرتبة الغزاة والفاتحين وأن يبسط سلطانه على المناطق الواقعة حول منابع نهر النيجر . وفي خلال عامي ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ وجهت فرنسا ضده حملة كبيرة تحت قيادة الكولونيل « فري » استطاعت أن تحقق بعض النجاح وإن لم تفلح تماماً في القضاء على نفوذ ذلك الملك الزنجي . وفي عام ١٨٨٧ عاد جاليني إلى عقد معاهدة أكثر سخاء مع احمدو واستطاع أن يقيم خطاً حديدياً حول منابع نهر السنغال كما استطاع أن يعقد معاهدة أخرى مع ساموري اعترف الأخير بمقتضاها بتبعية جزء صغير من منطقة النيجر العليا للحماية الفرنسية . وفي نفس العام (١٨٨٧) ارسل جاليني الملازم كارون في سفينة حربية لزيارة مدينة « تومبكتو » ولكن كارون هذا لم يكد يصل إلى ميناء تومبكتو المسمى كابارا حتى اصطدم بشعور العداء الذي أظهره نحوه الأهالي مما منعه من زيارة المدينة واضطره إلى العودة دون أن يحقق هدفاً واحداً .

وفي عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسي هو من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التي يضمها حوض نهر النيجر عند انحنائه العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسي والحماية الفرنسية فوق مقاطعات تيبه وكونج وباقي البلاد الواقعة بين نهر النيجر وشاطئ العاج .

وبدأ اتحادو في عام ١٨٩١ يحاول أن ينفذ عن كاهل بلاده دنس النفوذ الفرنسي ويتمرد على المعاهدات التي عقدها مع أعداء بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم في موقعة دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى الكولونيل ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة بإضافة مستعمرات كارانا وباخونو وسيجو إلى السنغال الفرنسي وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص ممتلكاتها في السنغال من الوقوع تحت سيطرة طريق تومبيكتو الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين مغلقاً في وجه النفوذ الفرنسي .

وصحب بقطة اتحادو وتمرده على الفرنسيين بقطة أخرى قادها ساموري فما كاد أرشينارد يخلص من الأول على النحو السابق حتى استدار ليواجه الثاني واستطاع أن يحتل عاصمته «بيسانديجو» Bisandeege بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم ساموري نحو

الشرق حتى وصل إلى حدود مستعمرة ساحل الذهب ، وهناك بذلت محاولات متعددة خلال عامي ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ لمهاجمته والقضاء عليه في مملكته الجديدة بامت جميعها بالفشل الذريع وكان أهمها محاولة الكولونيل مونتيل (وهو الذي كان قد سبق له القيام برحلة من السنغال إلى نيجر ومن هناك إلى بورنو ثم طرابلس عبر الصحراء) فقد بدأ بحملة من ساحل العاج لم تلبث أن بامت بالفشل مما دفع الحكومة الفرنسية إلى استدعائه من تلك المناطق .

وفي النهاية ، وفي خريف ١٨٩٨ تقدم الملازم « وولفل » وبعض الضباط الفرنسيين على رأس حملة قامت من ساحل العاج لمهاجمة ساموري ، فأوقع به هزيمة ساحقة وابد قواته تماما . .

* * *

وفي خلال حكم الملك لويس فيليب لفرنسا فترت الفتوح الاستعمارية إلى حد ما وإن كان هذا لم يمنع فرنسا من بذل محاولات ضعيفة لبسط نفوذها على نيوزيلندا وتوطين أقدامها في نيوزكاليدونيا وتاهيتي في المحيط الهادي . كما سعت في هذه الفترة أيضاً إلى توسيع ممتلكاتها في إفريقيا بإخضاع المناطق الواقعة على السواحل الغربية لإفريقيا والتي لم تكن قد ضمتها بعد .

ولقد استطاعت فرنسا في ذلك الحين أن تكسب بعض الحقوق على مناطق باسام الكبرى وآسيني الواقعة إلى الغرب من

المنطقة البريطانية في ساحل الذهب . فلما كان عام ١٨٦٠ بذات الإمبراطورية الثانية بعض المحاولات للحصول على نفوذ متزايد في إفريقيا كان من نتيجتها أن استطاعت فرنسا في عام ١٨٦٨ الحصول على بعض الامتيازات في مدينة « بورتونوفو » . ولقد كان من الممكن أن تباع فرنسا هذه الامتيازات لـ إنجلترا في مقابل مبالغ ضئيلة غير أن السباق الاستعماري بين الدولتين الذي كان قد بدأ منذ عام ١٨٨٤ متخذاً إفريقيا مجالا له لم يلبث أن أكسب تلك الامتيازات التي نالتها فرنسا أهمية قصوى في نظر الفرنسيين أنفسهم الذين طمعوا في أن يجعلوا منها نقطة ارتكاز في توسع نحو الشمال من خليج غينيا في اتجاه مستعمرة النيجر التي كانت فرنسا قد بدأت تحلم بالاستيلاء عليها .

وهكذا في عام ١٨٨٤ بدأ الفرنسيون احتلالهم الفعلي لمناطق باسام وآسيني على ساحل الذهب وبورتونوفو التي كانت تعتبر كمملكة صغيرة تخضع لسلطان داهوم . ولقد أكسبت رحلة الكابتن « بنجر » التي قام بها من النيجر إلى ساحل الذهب منطقة باسام الكبرى أهمية خاصة وترتب عليها في عام ١٨٩١ سقوط المنطقة الواقعة على ساحل العاج بين باسام الكبرى وليبيريا في قبضة الاحتلال الفرنسي .

وكان من نتيجة كل ذلك أن أصبح ذلك الساحل الذي كانت

تعتبر مناطقه الداخلية من أكثر مناطق إفريقيا غموضاً على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لسفن التجارة الانجليزية . وبالرغم من أن رؤساء المناطق الواقعة على هذا الساحل كانوا يقدمون مع صداقتهم لبريطانيا كافة التسهيلات لسفنهم التجارية إلا أن الحكومة البريطانية لم تتخذ أية خطوة أو تقدم أى احتجاج عندما احتلت فرنسا مقاطعات ذلك الساحل وأصبحت بذلك الجارة التالية لليبيريا التي سارعت في عام ١٨٩٤ بعقد معاهدة معها تخول لفرنسا الحق في التقدم لحماية تلك المملكة في حالة تعرضها لخطر الوقوع تحت نفوذ أو حماية أية قوة أخرى ..

ولم يلبث احتلال پورتونوفو أن أدى سريعاً إلى الاشتباك مع مقاطعة داهومي التي تحدث في فترات مختلفة كلا من الانجليز والبرتغال وسخرت أكثر من مرة من جهودهم الخائبة لغزو شواطئها . وأسفرت المعارك الأولى مع هذه المقاطعة العنيدة إلى احتلال أولى موانئها وفرض النفوذ الفرنسي على أرجائها ولكن الملك « بيهانزين » سرعان ما عاود الهجوم والقتال مما اضطر القوات الفرنسية إلى أن تضاعف جهودها فسيرت ضده حملة في عام ١٨٩٣ تحت قيادة الجنرال « دودز » وكانت هذه هي المرة الأولى التي تغزو فيها هذه المقاطعة قوات نظامية تامة التسليح فكان طبيعياً بعد عدد من المعارك أن يتم احتلال البلاد نهائياً

وهزيمة ملكها الذي وقع في الأسر ونفى بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية .

في نفس الوقت كانت القوات الفرنسية تتقدم خطوة وراء خطوة خلال مناطق النيجر العليا فاستطاعت في ١٨٩٣ احتلال « جين » المدينة الهامة التي تعتبر مهد الحضارة النيجرية والأم الروحية لمدينة « تومبوكتو » . ومن جين سار الكولونيل إرشينارد متجها لغزو تمبوكتو دون انتظار لأوامر الحاكم العام لسينجاليا بل وقيل أنه بدأ هذه الحملة ضد أوامر الحاكم العام بالذات.

واستطاع إرشينارد أن يفتح مدينة تومبوكتو بعد معركة قصيرة اشتركت فيها فصيلتان من المشاة وحملة بحرية قامت من ميناء « كبارا » تحت قيادة القومندان بوايتيه . ولم يمض وقت قصير على احتلال المدينة حتى بدأ الطوارق يهاجمون المنشآت البحرية التي كان الفرنسيون قد أقاموها في ميناء كبارا واستطاعوا أن يلحقوا بها خسائر جسيمة . فما كادت هذه الأخبار تبلغ بوايتيه حتى غادر تومبوكتو قاصداً كبارا لملاقاة الطوارق ولم يلبث الموقف أن تحسن إلى حد كبير عندما لحقت به هناك في ١٤ يناير ١٨٩٤ طواير المشاة الأولى تحت قيادة الكولونيل بونيه Bonnier وخرج بونيه على رأس قوة صغيرة لتفتيش المناطق المجاورة لتومبوكتو لطرد الطوارق منها . وكان على حد كبير من الثقة

بنفسه فلم يحرص على اتخاذ وسائل الحيلة اللازمة فسار بقواته مغمض العينين إلى الفخ الذى نصبه له الطوارق . . وفى الفجر هاجم الطوارق معسكره وأبادوا القوة الفرنسية عن آخرها فلم ينج منها سوى ثلاثة من الضباط وحفنة من الجنود أمكنهم الفرار ليرووا القصة بعد ذلك .

وبعد خمسة وعشرين يوما وصل إلى مسرح الحوادث طابور آخر من المشاة بقيادة الكولونيل جوفر الذى لم يكد يفرغ من إزالة آثار المعركة السابقة حتى نشط إلى تعقب الطوارق للانتقام منهم . وبعد عدد من المناوشات استطاع جوفر أن يفاجئ معسكر الطوارق أثناء الليل وأن يبيد منهم عددا كبيرا . وكان هذا هو آخر عهد الفرنسيين بالطوارق الذين لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة .

بعد ذلك نشط الفرنسيون فى إرسال الدوريات التى تجوب نهر النيجر إلى أبعد نقطة شمالى تومبوكتو وفى انفاذ البعثات المتعددة التى لم تلبث أن اخترقت المنطقة التى ينحني فيها نهر النيجر من مساقطه العليا نحو مجراه الأوسط تعقد المعاهدات وتذشر الحكم الفرنسى فى كل منطقة تمر بها .

ومرة أخرى ، منذ أخضع الفرنسيون مملكة داهومى ، عادت القوات الفرنسية إلى استئناف التقدم نحو الشمال فى اتجاه خط الطول التاسع الذى كان يفصل بين الممتلكات الفرنسية

والانجليزية فاحتلت نيكي Nikki (التي كان قد سبق للسكولونيل
ليجارد احتلالها لحساب شركة نيجريا الملكية) وبوسا . وكان
إقدام الفرنسيين على هذا العمل على جانب كبير من الأهمية فلقد
كان للانجليز سبق في إعلان خضوع تلك المنطقة للنفوذا الانجليزى
بما أدى إلى ثورة الشعور العام فى انجلترا لتصرف فرنسا على ذلك
النحو . وانتهى الأمر بعقد مؤتمر فى باريس بقصد الوصول عن
طريق المفاوضات إلى اتفاق بين الدولتين . وفى هذا المؤتمر سلمت
فرنسا بعودة بوسا إلى انجلترا مع احتفاظها هى بمقاطعة نيكي
وبالحق فى التوسع لبسط نفوذها على الضفة الغربية لنهر النيجر . .
وبهذا ربطت فرنسا فتوحاتها فى مملكة داهومى ببقية
امبراطوريتها فى النيجر . .

* * *

فى أواخر القرن السابع عشر نصح لويس الرابع عشر وزيره
ليبتز بالنزول على شواطئ مصر واحتلال ذلك الطريق الهام
المؤدى إلى الهند . ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها حينئذ الخروج
إلى حيز التنفيذ فنامت فى أرشيفات الحكومة الفرنسية إلى أن
تصادف اكتشافها بعد ذلك بواسطة رجال حكومة الديركتوار
عقب الثورة الفرنسية . وسواء أنقلت هذه الفكرة إلى نابليون
بونابرت بقصد ارساله فى مهمة فاشلة كتلك للنخلص منه أو أنها

جالت بخاطر نابليون نفسه دون أن يعلم بوجودها من قبل وتمنى القيام بها لتوجيه ضربة قاضية لطريق الاستعمار الانجليزى إلى الهند ، فإن القائد الكورسيكى لم يلبث على أى حال - وهو فى أوج نشوته بانتصاراته الباهرة فى إيطاليا - أن فاجأ أوروبا كلها بحملته على مصر بعد أن استطاع تضليل الأسطول الانجليزى والنزول إلى الاسكندرية فى عام ١٧٩٨ بقواته التى بلغ عددها حوالى أربعين الفا من الرجال .

والتقى نابليون بالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر فى ذلك العهد باسم سلطان تركيا فوقع بهم الهزيمة وطاردهم إلى الصعيد ومن ثم استتب له الأمر فى القاهرة . وحاول لكى يكسب عواطف المسلمين أن يدعى اعتناقه للإسلام وتحييده لمبادئه ولكن نلسون لم يترك نابليون طويلا ليتمتع بشمرات انتصاره فهاجم أسطوله فى خليج أبى قير وحطمه تماما كما أنزل إلى الأراضى المصرية قوات تركية لطرد نابليون من مصر ولكن هذه القوات لم تلبث أن أبيدت فى معركة أبى قير البرية التى كأنما أرادها نابليون أن يثار لأسطوله الغريق . .

وأدرك نابليون بعد أن تحطم أسطوله أنه قد حكم عليه بالبقاء فى مصر فحاول ابتلاع سوريا وقد خيلت له أوهامه أنه قادر على أن يقود منها جيوشه نحو القسطنطينية وإنشاء امبراطورية

في الشرق كإمبراطورية الاسكندر يكون هو عليها ملكا وسلطانا ..
ومرة أخرى تصدى الانجليز لخطط نابليون فعملوا على
معاونة حاكم عكا على الصمود لحصار نابليون لذلك الحصن حتى
اضطر هذا للارتداد عنه مهزوما . ونجحت هذه الهزيمة في أن
تنفض عن مخيلته أحلام الإمبراطورية فلم يلبث أن غادر مصر
متسللا إلى فرنسا وقد خلف من بعده مساعده كبير على رأس
الحملة ولكن كبير لم يلبث أن قتل ، وثار المصريون ، ووجهت
تركيا وانجلترا حملة مشتركة على مصر قررت مصير ما تبقى بها
من القوات الفرنسية التي سلمت ونقلت عائدة إلى فرنسا ..

وبالرغم من فشل الحملة الفرنسية التي وجهت لاحتلال مصر
فقد تركت من بعدها آثاراً بعيدة المدى : فقد نقلت مصر
إلى الاحتكاك العنيف بمدينة أوروبا ومهدت لانفصالها عن
الإمبراطورية العثمانية كما جعلت اهتمام فرنسا بذلك الوادي يأخذ
دوراً حاداً مما قربها في كثير من المناسبات من الالتحام بالانجليز
الذين كان اهتمامهم بالمسألة المصرية وطمعهم في احتلال وادي
النيل قد بدأ يأخذ طابعاً عملياً خطيراً ..

وفي عام ١٨٢٧ قام حاكم الجزائر ، التي كانت خاضعة في ذلك
الوقت للحكم التركي والذي كان يتميز بالحزم في معاملة الرعايا

الأوروبيين ، قام هذا الحاكم بصفع القنصل الفرنسي على وجهه بمنفضة الذباب ، وتحملت فرنسا تلك الإهانة لمدة ثلاث سنوات إلى أن سنحت لها الفرصة عام ١٨٣٠ إبان حكم لويس العاشر الانتقام وتحقيق هدف قديم إذ عمدت لصرف الأنظار عن المحنة التي كانت تجتازها أسرة بوربون الحاكمة إلى تسيير حملة حربية ناجحة قوامها ٣٧ ألفاً من المشاة وقوة من الفرسان ورجال المدفعية استطاعت أن تنزل في ميناء « سيدى فريج » بالقرب من مدينة الجزائر .

وقاوم الجزائريون هذه الحملة ولكن ليس بالقدر الذى يتكافأ وشهرتهم كمقاتلين أشداء ربما لأنهم كانوا يصطدمون للمرة الأولى بقوات أوروبية تامة التسليح . . وعلى أى حال فإنه لم تكد تمضى ثلاثة أسابيع على نزول الحملة فى « سيدى فريج » حتى سقطت مدينة الجزائر فى أيدي الفرنسيين وأخذ الحاكم أسيراً ومن ثم نفي إلى مدينة نابولى بإيطاليا..

أثارت هذه الحملة اهتمام إنجلترا إلى حد بعيد فطلبت من فرنسا بياناً عن مشروعاتها فى تلك البلاد وردت فرنسا على هذا الطلب بأن بذلت وعداً بأن يكون احتلالها لتلك البلاد مؤقتاً وأنها سوف تجلو عنها بمجرد أن تستتب الأمور وتعود المياه إلى مجاريها . وكان طبعياً أن يكون وعد فرنسا هذا ، الذى لم يقصد به غير التضييق

والتمويه ، كوعود روسيا في ذلك العهد فيما يختص باحتلالها
لأوساط آسيا ، وكوعود انجلترا حتى اليوم فيما يختص بجلائها
عن مصر ..

وسقطت بعد ذلك حكومة شارل العاشر ولم تستطع الحكومة
التي خلفتها أن تحمل على عاتقها أمام الشعب الفرنسي مسؤولية
الانسحاب من الجزائر بل وعمدت إلى جوار ذلك إلى اتباع
سياسة خاطئة تقوم على الجهل والاستبداد مع سكان البلاد
من العرب ، لم تلبث أن بدت نتائجها سريعاً ، فإن هؤلاء السكان
وإن كانوا لم يبذلوا جهداً كبيراً في حماية الحاكم التركي والدفاع
عنه ، إذ كان يبدو لهم أجنبياً عن البلاد ، إلا أنهم ما كادوا
يتحققون من أن بلادهم توشك أن تسقط في يد المسيحيين
الذين لم يبذلوا في ذلك الحين ما يبرر تظاهرهم بمظهر المتساحين
الدينيين حتى هبوا لمكافحة الاستعمار ووجدوا في زعامة الأمير
عبد القادر وسيلة للكفاح الوطني ضد الغزاة الأجانب .

واستطاع الأمير عبد القادر خلال الفترة بين عامي ١٨٣٥ ، ١٨٣٧
أن يلحق بالقوات الفرستية الهزيمة تلو الأخرى فلم تجد فرنسا بداً
في النهاية من أن تعقد معه معاهدة في عام ١٨٣٧ اعترفت فيها
بسلطانه على رقعة واسعة من غرب ووسط الجزائر .
ومضى عامان على هذا الاتفاق ثم عادت الحرب فنشبت

من جديد بين الأمير عبد القادر والقوات الفرنسية التي كانت قد أسندت قيادتها إلى المارشال بوجو Bugeaud ولم يتردد هذا المارشال في أن يحمل في قسوة ووحشية على الأمير عبد القادر كما لجأ في قتاله معه إلى ضروب من الخسة والندالة حتى استطاع في عام ١٨٤١ أن يجرد البطل القومي من كل نفوذه وأراضيه حتى اضطر في النهاية إلى الفرار إلى مراکش حيث عمل على تكوين جيش كبير عاود به غزو الجزائر ولكنه لم يغز في تلك المرة بغير الهزائم المتلاحقة وإن كان قد استطاع في مناسبات عدة أن يوقع بالفرنسيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد .

واضطر عبد القادر في النهاية إلى التسليم بعد أن وعده القائد الفرنسي بأن يبسر له سبيل مغادرة البلاد آمناً ليعيش في الإسكندرية أو نابولي . ولكن الحكومة الفرنسية لم توافق على هذه الشروط فنقضتها وأبقت عبد القادر في سجن خاص في إحدى القلاع الفرنسية إلى أن أصبح لويس نابليون إمبراطوراً على فرنسا فأطلق سراحه وسمح له بالعيش في مدغشقر إلى أن توفي عام ١٨٨٣ . وكانت الجزائر عند ما احتلتها فرنسا لا تخضع للحكومة موحدة : فقد كانت هناك حاكم الجزائر ، وحاكم أوران ، وبأى مقاطعة كوستانتين الذي كان يحكم أكثر الشاطئ الشرقي

للجزائر بينما كانت قبائل البربر التي كانت تسكن الجبال
وأطراف الصحراء تتمتع من الناحية العملية بالاستقلال التام .
وكانت مقاطعة كوستانتين من أقوى المناطق وأعصاها
على الغزو الفرنسي الذي فشل في حروبه الأولى مع الباي
في الاستيلاء عليها والذي لم يتمكن بعد ذلك من إخضاعها تماماً
إلا في عام ١٨٤٧ .

في هذا الوقت كانت فرنسا قد بدأت الحرب مع مرا كش
وأُسكنت بذلك أية محاولة كان من الممكن أن يقوم بها سلطانها
للتدخل في شئون الجزائر كما كانت قد فرغت من إخضاع واحتلال
كل بلاد الجزائر الواقعة إلى الشمال من جبال أطلس وهكذا لم يكد
يقبل عام ١٨٤٨ حتى أعلنت فرنسا تبعية الجزء الجديد الذي
احتلته من أفريقيا إلى نفوذها وضمه إلى مستعمراتها ليحكم كجزء
من فرنسا ذاتها بعد أن قسمته إلى أقسام ثلاثة كان لكل قسم منها
الحق في إرسال مندوبين عنه لتمثيله في البرلمان الفرنسي .

وفي عام ١٨٥٨ أعيد من جديد وضع الأسس التي يقوم عليها
حكم تلك البلاد فأُنشئت في باريس وزارة جديدة باسم « وزارة
الجزائر » وعين الأمير نابليون وزيراً لها ولكن هذا النظام
لم يلبث أن ثبت فشله فصرف النظر عنه بعد عودة الامبرطور
من زيارة لتلك البلاد في عام ١٨٦٣ . وحُكمت البلاد بعد ذلك

بواسطة حاكم عسكري خولت له سلطات واسعة ووضعت تحت تصرفه كل القوى الكفيلة بتهذبة القبائل التي كانت قد هبت ثائرة في ذلك الحين .

وبالرغم من كل ما بذل فقد ظلت تلك البلاد عرضة للقلاقل والثورات . وفي عام ١٨٧٠ عندما كانت الامبراطورية تحت مدافع الألمان الفت لجنة لبحث الأمور في تلك المستعمرة ولاقتراح علاج يكفل إعادة الأمور إلى نصابها . واستقر رأي اللجنة بعد مداولات طويلة على نبذ فكرة الحكم العسكري واستبداله بحكم مدني ولكن نظراً لما حدث في أعقاب الحرب الفرنسية الألمانية من تمرد في منطقة الجزائر الشرقية فان توصيات تلك اللجنة لم توضع موضع التنفيذ إلا في عام ١٨٧٩ عندما الفت بالجزائر أول حكومة مدنية . ولقد كان من أول قرارات الجمهورية الفرنسية الجديدة التي قامت في نهاية ١٨٧٠ هو منح الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين بالجزائر مع اختصاصهم بعدد كبير من الامتيازات ، وكان هذا القرار الخطيء عاملاً جديداً في تمزيق الاستقرار بتلك المستعمرة بما أوجده من اختلاف في المعاملة بين العرب واليهود وهو الاختلاف الذي خلق بعد ذلك كثيراً من المشاكل .

وفي الفترة بين عامي ١٨٤٨ ، ١٨٨٠ بذلت مجهودات متعددة

كثيرة لتسهيل إقامة الفرنسيين بالجزائر واستيطانهم لها كما فتح نفس الباب لسائر الأجناس الأوروبية الأخرى. وكان من بين ما عمدت إليه الحكومة الفرنسية في هذا السبيل أنها كانت تختار بعض الجنود من شباب الجيش ثم تعقد زواجهم على الفتيات الفقيرات بعد أن تتكفل هي بنفقات ذلك الزواج وبدفع قيمة الدوطة في مقابل هجرتهم الإقامة في الجزائر حيث كانت تمنح كل أسرة من هذه الأسر مقاطعة واسعة من الأراضي، ولكن أغلب هذه الزيجات كانت سرعان ما تنتهي بالفشل : فان الزوج ما يكاد ينفق الدوطة التي دفعها له الدولة حتى يهجر زوجته الشابة ويعمل جاهداً على العودة إلى فرنسا عن أى طريق . ومع ذلك فان عام ١٨٧١ ما كاد يقبل حتى كان نحواً من ١١,٠٠٠ مواطن من سكان الأناضول واللورين قد استوطنوا الجزائر وحصلوا فيها على أقطاعات من الأرض .

وفي الوقت نفسه ساعدت الطمأنينة التي بسطتها فرنسا على المعاملات التجارية على اجتذاب عدد كبير من الإيطاليين والمالطيين (الذين استوطنوا الجزء الشرقي من الجزائر) وعدد أكبر من الأسبانيين (الذين أقاموا في جزئها الغربي) وعلى ربطهم بتلك المستعمرة . وما زالت اللغة الأسبانية حتى اليوم هي السائدة في مقاطعة أوران على اللغة الفرنسية نفسها بينما تسود اللغة الإيطالية

في بون وكوستاتين وداخل البلاد حتى منطقة تيبيا .

وعلى هذا النحو أتمت أوروبا استعمار الجزائر لا بواسطة دولها الشمالية فحسب وإنما أيضاً بسكان منطقة البحر الأبيض الذين يرتبطون عن طريق صلة الدم بأجناس البربر التي تقطن شمال أفريقيا . وفي عام ١٨٦٣ أصدر الامبراطور نابليون قانوناً بنزع ملكية الأرض من القبائل والاعتراف بملكية العرب الفردية لها . ولقد استطاع هذا القانون ، وإلى حد كبير ، القضاء على نفوذ القبائل وفتيت المجتمع القبلي وربط العرب بالأرض حيث لا يدينون بالولاء لآية سلطة غير سلطة الحكومة القائمة ، وكان من الطبيعي أن تنشأ خارج حدود المناطق الخصبة الصالحة للزراعة حياة متنقلة بين السكان المتفرقين هناك بحكم ما تفرضه طبيعة الأرض القاحلة واستحالة زراعتها أو الاستقرار في ربوعها . وعاونت هذه الحياة على المحافظة على روح الحرب والقتال في صدور الأهالي هناك وعلى دفعهم بين الحين والآخر إلى القيام بالحروب والثورات . وفي حوالى عام ١٨٨٠ اضطرت فرنسا إلى جلب قوات عسكرية كبيرة بقصد اخماد ثورة عاتية قادها د أبو عمام ، الذي استطاع أن يجمع حول رايته أغلب القبائل العربية التي تسكن المرتفعات الواقعة على حدود مراكش والتي لم تهدأ ثورتها إلا بعد أن تم انشاء خط حديدي يخترق أراضيها .

أما تونس فقد كانت تخضع هي الأخرى ، كالجزائر
وطرابلس ، للحكم التركي . وكان يحكمها في ذلك العهد ضابط تركي
لم يلبث أن عمل على الاستقلال بها عن تركيا استقلالاً مقيداً
بشروط عديدة رضى بها في مقابل حصوله على حق توارث الملك
لأفراد أسرته . فلما سقطت الجزائر في يد الفرنسيين كان طبيعياً
أن تتأثر تونس بتلك الأحداث التي تجرى بالقرب منها وأن
تتحول أنظار فرنسا إليها .

وعمدت فرنسا أولاً إلى الاحتفاظ بعلاقات الملاينة والملق
بينها وبين تونس حتى أنها لم تتردد ، عندما نشبت الحرب بينها
وبين الأمير عبد القادر ، في أن تعرض على باي تونس أن يختار
اثنين أو ثلاثة من أمراء أسرته ليتولون حكم أوران وكونستانتين
وإن كانت الفكرة مع ذلك لم يقدر لها الخروج إلى حيز التنفيذ .
وفي عام ١٨٦٢ قام باي تونس بزيارة الامبراطور نابليون
أثناء وجوده في الجزائر غير أنه في أواخر العقد السادس من القرن
التاسع عشر ، وكانت انجلترا حتى ذلك التاريخ حريصة على ضمان
استقلال تونس ، جد في الموقف الدولي عامل جديد أثر
على توازن القوى في منطقة البحر الأبيض وهو ظهور إيطاليا
في الميدان العالمي كدولة موحدة . وصاحب هذا تدهور خطير
في ميزانية تونس واقتصادياتها يشبه إلى حد كبير ما أصاب مصر

تحت حكم الحديوي اسماعيل . ولم يكن الباي مبذرا فحسب وإنما كان وزراؤه أيضا الذين لم يتورعوا عن سرقة البلاد بلا خجل وعن عقد القروض مع الدول الأجنبية لا لصالح البلاد وإنما لكي يزدادوا غم انتفاخا وثراء على حساب رفاهية مواطنيهم .

ومهدت المسألة المالية هذه الطريق لتدخل القوى الثلاث : إنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا . وهكذا تم في عام ١٨٦٩ تأليف لجنة ثلاثية من أعضاء تلك الدول لمراقبة الميزانية التونسية وإخضاع شئونها المالية لتدخل الدول الثلاث .

وبدأت تجارة إنجلترا مع هذه البلاد في أوائل العقد السابع من ذلك القرن تتناقص رويداً رويداً بينما مضى التدخل الفرنسي يقوى ويشتد حتى انتهى بحصول فرنسا على حق امتياز انشاء شبكة للتغراف وعلى عقد انشاء سكة حديدية هامة بالبلاد بعد أن تخلت عنها مؤسسة انجليزية كان قد سبق لها الحصول عليه .

وبدا واضحاً أن الحكومة المحلية في تونس لن تقوى على الاستمرار ما لم تسند لها دولة أوروبية . وبالرغم مما كان يمكن لانجلترا أن تدعيه لنفسها من حقوق في تلك البلاد فقد تنازلت لفرنسا عن كل شيء عن طريق ممثلها الرسمي في مؤتمر برلين . وهكذا لم يبق لفرنسا من منافس في تونس غير إيطاليا التي بالرغم من أنها كانت تطمع في بسط سيادة روما القديمة على هذا الجزء

من شمال أفريقيا عادت هي الأخرى فآثرت الانسحاب عن تحدى فرنسا في هذا النضال . وهكذا وجدت فرنسا الطريق خاليا أمامها فباتت تتحين الفرصة للقيام بعمل جريء حاسم .

وسنحت الفرصة في النهاية عندما قامت بعض القبائل التونسية بهجمات محدودة للسطو على حدود الجزائر فاستغلت فرنسا هذا الحادث البسيط لغزو تونس بقوات جرارة استطاعت أن تنتزع من الباي في قصره الريفي معاهدة « قصر السعيد » التي وضعت تونس بمقتضاها تحت الحكم الفرنسي .

وعندما أعلنت هذه الأنباء وأذيعت خارج البلاد هاج الرأي العام ضد فرنسا وحكومة الباي التي سلمت البلاد للاستعمار الفرنسي . وانهبت تونس بالثورة ضد القوات الغازية التي الفت نفسها مضطرة للقتال في أغلب مناطق تونس الشمالية . ولكن ما كاد ينقضى عام واحد حتى كان كل شيء قد انتهى وعاد الهدوء يبسط أستاره فوق البلاد . وفي عام ١٨٨٢ استبدلت معاهدة قصر السعيد باتفاق آخر أتمت به فرنسا وضع يدها نهائيا على تونس كما تم في العام نفسه الاعتراف الرسمي من باقى القوى التي كانت تتنازع النفوذ في تونس بشرعية وضع فرنسا في تلك البلاد .

وفي عام ١٨٩٧ ألغيت كافة المعاهدات التجارية السابقة التي

كان قد عقد لها الباي واستبدلت بمعاهدات أخرى تضمن لفرنسا كافة الامتيازات بالنسبة لباقي الدول .

ومنذ بداية عام ١٨٩٨ اعتبرت تونس نهائيا جزءا من الامبراطورية الفرنسية ولقد حدث بعد ذلك اما بالصدقة أو طبقا لخطة موضوعة ، أن تولى شتون فرنسا في تونس رجال قديرون في تنفيذ السياسة الاستعمارية فاستطاعوا أن يوطدوا أقدام فرنسا في تلك المنطقة من العالم وأن يصمدوا للحركات الوطنية التي لم تكف يوما واحداً عن الاشتغال بها .

* * *

حدث بعد ذلك نتيجة لتوسع مستعمرة السنغال تحت قيادة الجنرال فيدهرب ، واحتلال الواحات الواقعة في قلب الصحراء الكبرى كواحة وارجلا Wargla وواحة جوليا Golea أن بات الاتصال بين المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا وغربها هدفا يمكن تحقيقه وبدأ الاهتمام بمشروع انشاء الخط الحديدي المسمى « ترانس شاريان » يأخذ شكلا جديدا واضحا بعد أن كانت فكرته خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر تبدو وكأنها خيالا بعيد التحقيق .

ولكن حدث في عام ١٨٨١ أن اغتيلت بعثة « فلاترز » Flatters في الصحراء الكبرى وأظهرت قبيلة الطوارق عداء سافرا

ومعارضة شديدة لآى امتداد للنفوذ الفرنسى عبر الصحراء
فعادت فكرة الخط الحديدى إلى الانزواء من جديد وساعد
على ذلك إلى حد كبير النفقات الباهظة التى كان يحتاج إليها إنشاء
الخط وطبيعة البلاد غير المجزية التى كان مقدرا له أن يخترقها .

ولكن فرنسا كانت لا تزال حريصة على ألا تزحف أية قوة
أوروبية لتقف سدا بين مستعمراتها فى شمال أفريقيا وامبراطوريتها
فى النيجر فعمدت فى عام ١٨٩٠ إلى الحصول من الحكومة
الانجليزية على ضمان لهذه النقطة وعلى اعتراف منها بامتداد منطقة
النفوذ الفرنسى من مستعمرة النيجر حتى شواطئ بحيرة تشاد
الشمالية الغربية .

واستطاع النفوذ الفرنسى بعد ذلك أن يتسلل إلى أراضى
الكونغو فيما وراء النيجر وساور المسئولين الفرنسيين الحلم بإنشاء
امبراطورية واسعة تمتد من شواطئ البحر الأبيض شمالا حتى
نهر الكونغو وشواطئ المحيط الأطلنطى جنوبا . وكانت فرنسا
قد استطاعت منذ عام ١٨٣٩ أن توطد أقدامها فيما يمكن أن يسمى
اليوم بساحل الكونغو أو غينيا السفلى فى الوقت الذى كان فيه
الملك لويس فيليب يتابع بغير اهتمام كبير مشروع الاستيلاء
على ساحل أفريقيا الغربية .

وكان الملك دينيس حاكم جابون فى تلك الاثناء قد أظهر

ترحيبا ورعاية لبعثات التجار والمبشرين الكاثوليكين ووافق على وضع مملكته تحت النفوذ الفرنسي مما مهد لاحتلالها بواسطة الجيوش الفرنسية بعد ذلك عام ١٨٤٤ ، وقد تم بناء مدينة ليرفيل ، العاصمة الحالية في عام ١٨٤٨ بواسطة قافلة من العبيد كانت على إحدى السفن التي أسرتها البحرية الفرنسية ثم منحوا حريتهم بعد ذلك ليكونوا نواة السكان في المدينة الجديدة .

ولقد كلفت شئون جابون السياسية فرنسا كثيراً حتى لقد عرضتها على إنجلترا أكثر من مرة للمبادلة عليها بمستعمرة جامبيا . ولكن لم تلبث الرغبة التي كانت تسود فرنسا عام ١٨٨٠ بتوسيع مستعمراتها والحصول على امبراطورية واسعة مترامية الأطراف أن دفعتها إلى تغيير وجهة نظرها فيما يتعلق بجابون والعمل على مد نفوذها هناك لتصل به إلى شواطئ المحيط صوب الكاميرون ومصب نهر الكونغو وهو الطريق الذي كان المستر ستانلي ، الرحالة العالمي قد نجح في اجتيازه .

وحدث قبل عودة مستر ستانلي من رحلته تلك أن دعا ملك بلجيكا جمعا من الجغرافيين والعلماء لعقد مؤتمر في بروكسل يتولى بحث امكانيات احتلال أفريقيا بواسطة هيئة دولية تتولى شئون تلك القارة . واسفر المؤتمر عن تكوين لجان وطنية كان عليها أن تتولى باسم الدولة التي تمثلها مهمة استكشاف جزء

من القارة الأفريقية . وهكذا أرسلت فرنسا ميسو دي برازا De Brazza لاكتشاف منطقة جابون في الوقت الذي كان فيه مستر ستانلي يستعد للقيام برحلته الثانية لاكتشاف منطقة الكونغو لحساب ملك بلجيكا .

واستطاع دي برازا أن يسرع في تقدمه مارا بمنطقة الكونغو العليا عاقدا الملاحظات لصالح فرنسا ورافعاً أعلامها في كل مكان تطأه قدماه ولم يلبث التنافس على الكشف والغزو ان استعر لمدة سنين طوال بين بعثة ستانلي ، التي أصبحت تدريجياً تعمل لخدمة حكومة بلجيكا رسمياً ، وبين بعثة دي برازا . فلما عقد مؤتمر برلين في ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ودار البحث حول إنشاء ولاية الكونغو الحرة رؤى وضع تلك الولاية تحت حكم ملك بلجيكا وكان معنى هذا أن تتنازل فرنسا لبلجيكا عن أكثر المناطق الغربية والشمالية من حوض نهر الكونغو . وقبلت فرنسا في النهاية ذلك الوضع في مقابل وعد من المؤتمر بأنه إذا تقرر في المستقبل نزع ولاية ملك بلجيكا عن الكونغو الحرة فإنها سوف تعطي عندئذ لفرنسا .

وكانت فرنسا تطمع منذ زمن طويل ، حتى قبل أن يمد دي برازا نفوذها إلى شواطئ نهر الأوبنجي ، أن تتوغل شمالاً نحو نهر شاري وبحيرة تشاد . وفي عام ١٨٩٠ كان بول كرامبل هو

أول مستكشف فرنسى يعبر مناطق البنتو المجهولة تاركا وراءه غابات الكونغو ليتقدم فى الأراضى الواسعة المنبسطة التى تكون السودان الوسطى . ولكنه هوجم وقتل كما قدمنا بالتفصيل فى الفصول السابقة وجاء من بعده عدد من المستكشفين أمثال ديباوسكى ، وميستر ، وجنتيل . وقد استطاع الأخير كما رأينا أيضا فى الفصول السابقة أن يمتدح عباب نهر شارى بباخرته النيلية المسلحة وأن يصل بها إلى بحيرة تشاد .

ولم تلبث فرنسا بعد أن تخلصت من المقاومة العنيدة الباسلة التى حمل راجح لواءها أن نجحت فى إبرام سلسلة من المعاهدات بينها وبين إنجلترا وألمانيا وبلجيكا اعترفت لها فيها بمناطق نفوذها فى السودان الوسطى اعترافا تاما . .

وبهذا العمل الأخير نجحت فرنسا فى تحقيق حلمها القديم بإنشاء امبراطورية واسعة تمتد بغير انقطاع من الجزائر شمالا حتى الكونغو جنوبا وكان هذا هو أعجب عمل شهده تاريخ الجشع الاستعمارى وقد تمخض عن نزول تلك القوة الهزيلة المؤلفة من ثلاثين ألف رجل والنى هبطت شواطئ افريقيا فى صيف عام ١٨٣٠ فى ميناء سيدى فريج ، بالقرب من الجزائر .

ولكن هذا التوسع العجيب الذى قام على الخسة والخديعة والتكيد بالمواطنين الأحرار واستغلال بباطهم وسذاجتهم

لم يرض مع ذلك أطماع فرنسا التي كان يحكمها رأس المال المتزايد والذي انطلق كالغول باحثا عن أسواق ومستعمرات في نهاية القرن التاسع عشر . فنراها في مطلع القرن العشرين ، وبعد فراغها من إنشاء تلك الامبراطورية الواسعة ، تتطلع إلى مد نفوذها عبر النيل نحو الحبشة وخليج عدن ونرى صحفها تتحدث في وقاحة عن أن الحبشة هي هدف فرنسا التالي .

ووقفت إنجلترا وإيطاليا ، كما رأينا خلال الأعوام الخمسين الماضية ، في وجه أحلام فرنسا المتعلقة بشرق أفريقيا ولم تستطع فرنسا بعد ذلك أن تحقق هدفا واحدا من أحلامها الجديدة سوى أن تبسط نفوذها على الصومال الفرنسي ، وأن تمده حتى يقترب من مدينة هرر . . .

مراجع الكتاب

المراجع العربية

- ١- الزبير باشا رجل السودان تأليف القا مقام سعد الدين الزبير
الطبعة الأولى ١٩٥٢
- ٢- تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته تأليف
نعوم شقير بك طبع ١٩٠٣
- ٣- تاريخ مصر في عهد الخديوى اسماعيل (الجزء الثانى) تأليف
الأستاذ الياس الايوبى طبع ١٩٢٣
- ٤- حقائق الاخبار عن دول البحار (الجزء الثانى) تأليف
اسماعيل سرهنك باشا طبع ١٢٤١ هـ .
- ٥- حاضر العالم الإسلامى . تأليف لوثر وب ستودارد الأمريكى
وضع الأمير شكيب أرسلان وترجمة الأستاذ عجاج نويهض
(الجزء الأول) طبع ١٩٢٥ .
- ٦- أسفار محمد عثمان مرغنى فى غرب أفريقيا وإنجلترا وعودته
للسودان مع رفقاءه بعثة نيجريا طبعة بيروت ١٩٢٧
- ٧- دائرة معارف البستانى . المجلد العاشر .

المراجع الأفرنجية

1. La Chute de l'Empire de Rabah. Emile Gentil Paris 1902.

2. La Vie du Sultan Rabah. Les Français au Tchad . Gaston Dujarric Paris 1902 .

3. Rabah et les Arabes du Chari. Documents Arabes et Vocabulaire . Docteur Decorse . Medecin des Troupes Coloniales .

M. Gandefroy - Demombynes Professeur a l'Ecole Coloniale .

4. A La Conquête du Tchad. Harry Alis. Paris 1891 .

5. Babeh. Das Tschadseegebiet Von. Dr. Max Freiherrn Von Oppenheim. Berlin 1902.

6. Gessi. Sette Auni Nel Sudan Egiziano . Milan 1891 .

7. Nouveau Larousse Illustré. Dictionnaire Universel Encyclopédique Publié sous La Direction de Claude Augé Supplément .

8. A History of the Colonization of Africa by Sir Harry H. Johnston, K. C. B., G.C. M. G. 1905

9. Black Ivory . H. C. Jackson, Sudan Civil Service 1913 .

10. Schweinfurth . The Heart of Africa.

11. Cyril Claydon . The rise of French. Imperialism. London 1945.